ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان

حنطة

مجلة شهرية تصدر عن شبكة حنطة للدراسات والنشر

العدد 26 - حزيران2015

لافتة نظري

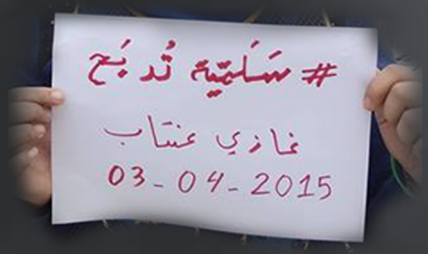

سوريا: بقرة الحقل تحرث بثور الحاقل

تقرؤون في هذا العدد

مـلف
سوريا بين عاصفة الحزم وتحرير إدلب

ع البيدر
محمد صبرا على بيدر حنطة

حصيدة
الإدارة الذاتية في مواجهة تحديات الحرب والحصار

حكايا البيدر
هل للسوريات دور مرتقب في عملية التحوّل نحو الديموقراطية

جرن حنطة
دراسة صادرة عن مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، تقوم حنطة بنشرها على جزئين

خميرة
البساطة المستحيلة قراءة لـ «فراس الضمّان»

رئيس التحرير: ناجي الجرف
مدير التحرير: بشرى جود
المدير الفني: بحر عبد الرزاق
تصميم فنّي: عمران الحلاق

فريق التحرير

ثـابت اســماعيـل
جـــمال حســون
جـــنان عـــلي
محمد الجرف
مصطفى تاج الدين الموسى

لوحة الغلاف: عمل للفنان أنس سلامة

إن الآراء الواردة في مجلة حنطة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

www.hentah.com
hentah.magazine@gmail.com

أخيراً..
سيعودُ كلُّ شيءٍ إلى مكانِه
السنونوةُ..
إلى أميرها السعيد
الزجاجةُ..
إلى يديَ اليسرى
الطعنةُ..
إلى عشِّها الدافئ أعلى الظَّهر
الحِبرُ..
إلى عينيَّ العتيقتين
الإبهامُ مرفوعاً..
إلى تحيّةِ أعدائي
أنتِ..
إلى حضنِ غيري
توقيعي..
ـ توقيعي المُجنَّحُ كالسنونو ـ
إلى القصائد التيُرددِّدُها الجنودُ
على جبهتين متقابلتين
ويجهشونَ بالبكاء !!.

فراس الضمان

هل سيطرت جبهة النصرة على إدلب؟

طارق أحمد

تترك العلامات المشهدية أثراً مضاعفاً في لحظات ذروة الأزمات الساخنة. وهو ما يمكن رصده بوضوحٍ في مفاصل عديدةٍ شهدتها الثورة السورية، كان آخرها إخراج قوّات بشار الأسد من إدلب؛ بدءاً بتصدّر الشيخ السعوديّ عبد الله المحيسني (القريب من جبهة النصرة، دون أن يكون عضواً فيها) إطلاق هذه المعركة، مروراً بالتواضع الشديد لحضور علم الثورة على مباني المدينة المحرّرة، وصولاً إلى تحطيم تمثال القائد الوطنيّ إبراهيم هنانو (قيل فيما بعد إن من فعلوا ذلك ظنّوه تمثالاً لحافظ الأسد).

ولا أدلّ على أهمية هذه العلامات من احتلالها عناوين تغطياتٍ صحافيةٍ ومقالاتٍ غربيةٍ وعربيةٍ عن الحدث، ومن الخلافات الحادّة التي أثارتها على صفحات الفايسبوك، وهو المجال العامّ السوريّ حالياً، بشكلٍ فاق بمرّاتٍ خبراً من نوع إعلان أهالي قرية «إشتبرق»، ذات الأغلبية العلوية، جنوب جسر الشغور، والتي سيطرت عليها القوّات المعارضة مؤخراً، عن فقدان قرابة المائة من أبناء القرية أثناء الاشتباكات، من رجالٍ ونساءٍ وأطفال، ظهر بعضهم (الأطفال) في صورةٍ وزّعتها جبهة أنصار الدين، القريبة من تنظيم القاعدة بالفعل، يبدون فيها حسني المظهر تحت «رعاية» الجبهة.

وبالعودة إلى السؤال عن سيطرة جبهة النصرة على إدلب، ونفاذاً من لغة العلامات إلى ما هو أرسخ منها من معطيات، يمكن أن نرصد الملاحظات التالية:

تكون جيش الفتح، الذي سيطر على المدينة، من ستة آلاف مقاتل، بينهم ألفٌ فقط من جبهة النصرة، وفق تقديراتٍ محايدة، وبحسب التسريبات عن آلية تشكيل المجلس المدنيّ لإدارة إدلب، التي حدّدت كرسياً واحداً لكل ٢٥٠ مقاتلاً شاركوا في التحرير.

بالمقابل، كان عدد مقاتلي حركة أحرار الشام الإسلامية (إثر اندماجها مع صقور الشام مؤخراً) يقارب الألفين. ومن اللازم هنا النظر إلى التحوّلات الملحوظة لأحرار الشام من السلفية الجهادية إلى الإسلامية المعتدلة، ومن شعار «مشروع أمة» إلى «ثورة شعب».

وما زالت هذه التحوّلات جاريةً وتعد بالكثير لو أتيحت لها الظروف الملائمة.

من بين الفصائل الخمسة الأخرى المشكّلة لجيش الفتح يمكن حسبان فصيلٍ صغيرٍ فقط، هو «جند الأقصى»، على السلفية الجهادية، أما بقية الفصائل فهي أقرب إلى تكوين الجيش الحرّ ولكن بشعاراتٍ إسلامية.

حتى في حالة النصرة يجب النظر في التفاصيل؛ فإضافةً إلى «المهاجرين» -الذين استفزّت مقاطعهم المصوّرة الكثير من الناشطين، حتى رأوا أن المدينة تخرج من احتلالٍ إلى احتلال- يضمّ فرع الجبهة أعداداً وافرةً –وغالبةً على الأرجح- من أبناء محافظة إدلب نفسها. ومعظمهم قد انضمّ إلى النصرة بسبب انتظام التمويل والتسليح، وهرباً من فوضى تشكيلاتٍ مسلحةٍ أخرى، ورغبةً في أقوى أداءٍ ممكنٍ ضدّ النظام. وإن النظر إلى هؤلاء بوصفهم أعضاء جدّيين في تنظيم القاعدة يحمل الكثير من قسر الواقع المتعيّن والمضطرب على ارتداء قوالب نمطية ثابتة، كما يلحظ كلّ مراقبٍ لجبهة النصرة وتوسّعها العدديّ في ظروفٍ حربيةٍ لا تنظيميةٍ. وينطبق هذا الكلام أكثر على جند الأقصى، التي لم تبايع تنظيم القاعدة أصلاً، وربما شهدت بوصلتها تجاه أفغانستان تراجعاً بعد مقتل مؤسّسها الجهاديّ المخضرم أبو عبد العزيز القطري، مطلع ٢٠١٤، وانتقالها إلى عهدة أمراء محليين من إدلب، حيث توجد الحركة.

لا يختلف أحدٌ حول أن المحرّك الأساسيّ لمعركة إدلب (وما بعدها) هو توافر الدعم عبر التوافق الإقليميّ التركيّ السعوديّ القطريّ. وبغضّ النظر عن رأي المؤمنين بنظرية المؤامرة بلا ضفاف، لا يمكن تصوّر أن تدعم هذه الدول قيام حكمٍ للقاعدة، ولو على جزءٍ صغيرٍ من الأراضي، وإن دعمت

قوةً عسكريةً تشارك فيها النصرة، بعد طول استعصاءٍ للحالة السورية، وعدم وجودٍ أفقٍ واضحٍ لحلٍّ سياسيٍّ أو لترجيحٍ عسكريٍّ عبر فصائل معتدلةٍ في الشمال، بعد التفكيك السريع لجبهة ثوار سورية وحركة حزم.

من الواضح أن الفصائل المشكّلة لجيش الفتح لا تملك الموارد الاقتصادية اللازمة لإدارة الشؤون الخدمية والمدنية لإدلب، وإن زعمت أنها تملك الكفاءات والخبرات من أعضائها أبناء المحافظة. مما يجعل باب التعاون مع أجهزة المعارضة الخارجية -ولا سيما هنا الحكومة المؤقتة- مفتوحاً، بدافع الاضطرار الماليّ على الأقلّ. ولكن ذلك لن يتمّ إلا باشتراط أمرين؛ أولهما أن لا تتصرّف هذه الحكومة، ومن ورائها الائتلاف، بطريقة السلطة من فوق، التي تُقدَّم لها المدينة على طبقٍ من تضحيات المقاتلين والسكان المحليين الذين يقتصر دورهم على الموت والصبر! وشرط أن تمتلك هذه الحكومة المتهالكة الموارد المالية أصلاً، فضلاً عن الخطط الناجعة بالطبع.

أخيراً، ما الذي نريد أن نقوله عبر النقاط السابقة؟ هل هو أن إدلب بخيرٍ بالنسبة إلى كلّ من يطمح إلى دولةٍ ديمقراطيةٍ وحديثة؟ بالطبع لا. ولكن انسحاب القوى المدنية والسياسية من طلب «حصّتها» في المدينة -بل والإسهام في صناعة هذه الحصّة بالأصل- وعدم استمالة القوى على الأرض، والسعي إلى دعم التوجّهات المعتدلة فيها، والبحث عن التفاهمات، والاكتفاء بالندب؛ هو ما يقوّي في واقع الحال الانطباعات المشهدية الأولى عن سيطرة الأسود على المدينة الخضراء.

الاستطلاع الشهري الأول لـ «شبكة حنطة للدراسات والنشر»

حدثان بارزان هزّا الساحة السورية خلال شهر أذار الماضي، أولهما «تحرير» مدينة إدلب من يد النظام السوري بتاريخ ٢٨ مارس/ آذار ٢٠١٥. والثاني هو المجزرة الكبيرة التي قام بها تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» ضد أهالي قرية المبعوجة التابعة لمدينة سلمية بتاريخ ٣١ مارس/آذار ٢٠١٥

بمناسبة ذلك قامت «شبكة حنطة للدراسات والنشر» باستطلاع رأي لعينتين عشوائيتين في كل من مدينتي إدلب وسلمية.

يُذكر أن كل عينة عشوائية بلغ عددها ١٥٠ شخصاً تزيد أعمارهم عن ثماني عشرة سنة.

أولاً- مدينة إدلب

الحدث

أهم ما ميّز دخول إدلب ثانية مدن الشمال بعد حلب أن هذا الدخول لم يكن باسم فصيل واحد، وإنما باسم جيش الفتح الذي ضمّ سبعة فصائل مقاتلة في غرفة عمليات واحدة، هذه الفصائل هي: أحرار الشام، وجبهة النصرة، وجند الأقصى، وجيش السنة، وفيلق الشام، وجند الحقّ، وأجناد الشام.

أحد القادة العسكريين لجيش الفتح أبو يوسف المهاجر، وفي لقائه مع الإعلامي أحمد منصور في برنامج «بلا حدود» يوم ٨ أبريل/ نيسان، أرجع الانتصار إلى إلغاء الفصائلية لصالح جيش الفتح، هذا من جانب، مضيفاً إلى ذلك سرعة انهيار مليشيات و «شبيحة» النظام وبقاء الجيش وحده داخل المربع الأمني ثم إخلاءه المدينة يوم ٢٨ مارس/آذار وإعلان «التحرير».

من ناحيته قال عضو المكتب السياسي في حركة أحرار الشام أبو عزام الأنصاري أن إعادة الحياة للمدينة ستشمل إعادة الدوائر ومؤسسات الدولة إلى الناس لتديرها كوادر مدنية لا يشترط في اختيارها سوى الكفاءة.

الأسئلة:

توجهت «شبكة حنطة للدراسات والنشر» بالأسئلة التالية إلى العينة العشوائية المستهدفة في مدينة إدلب:

١. كيف كان المزاج العام عشية تحرير إدلب؟
٢. كيف يفسر الناس سهولة التحرير وانسحاب قوات النظام؟
٣. بعد حوالي الشهر على التحرير، أين أصبح المزاج العام؟
٤. من هو التنظيم الذي كانت له اليد الطولى بالتحرير، وهل هناك تمايز في مواقف الناس من هذه التنظيمات؟
٥. إذا كان بالإمكان وضع تقديرات تقريبية لنسبة المؤيدين بشدة للتحرير والمعارضين له، والدرجات بين الموقفين؟
٦. ماذا يقول الناس عن تأثير التحرير على حياتهم اليومية؟ وما هي تخوفاتهم؟ وكيف يستعدون لمواجهتها؟
٧. ما هي القصص والشائعات التي يتداولها الناس ولا تنشرها وسائل الإعلام؟
٨. من أي وسائل إعلام يتقصى الناس معلوماتهم عن الوضع الميداني والعسكري في إدلب؟

المخرجات:

السؤال الأول: كيف كان المزاج العام عشية تحرير إدلب؟

معظم الأجوبة أكدت على حالة التوتر التي عاشها أهالي المدينة عشية تحرير المدينة (٩٢٪)، ولكن اختلفت أسباب هذا التوتر بالنسبة لأفراد العينة.

البعض رد هذا التوتر إلى الخوف من المجهول (٤٠٪)، المحامي هشام قال: «وصلت الحالة النفسية طبعاً بالنسبة للمدنيين إلى درجة عالية من التوتر المشحون برهبة ورعب من عواقب تصل إلى حدّ إيذاء المدنيين من أحد الطرفين وسط صراعهم للسيطرة على المدينة، إذ كان الاعتقاد أن الثوار سوف يقومون بمعاقبة الجميع بغض النظر عمّا إذا كان الشخص مدني أم لا، على خلفية أن الكل كان راغباً في وجود النظام وقانعاً بسيطرته على المدينة. أما إذا أحكم النظام سيطرته على المدينة ومنع الثوار من التقدم،عندها سوف يقوم النظام بحملات ومضايقات للمدنيين تحت ذريعة التواطؤ مع الثوار والرغبة في دخولهم إلى المدينة».

حوالي ٢٠٪ عبّروا عن «تخبّط المشاعر» بين الفرح والخوف من انتقام النظام. يقول الإعلامي عامر: «كان هناك تخبط بالمشاعر بين فرح التحرير وهموم المسلمين المستضعفين على أمنهم وسلامتهم، ولم يغب عن ذهننا التفكير بمستقبل الثورة والمنطقة».

النسبة المتبقية (٤٠ ٪) عبّرت عن «نشوة النصر». المهندس أسعد قال: «المزاج العام كانت تملؤه نشوة النصر وانتظار الغد من أجل التجول في شوارع إدلب». المواطن محمد قال: «هناك شعور بالنصر والخوف ونوع من الصدمة الناتج عن النصر السريع».

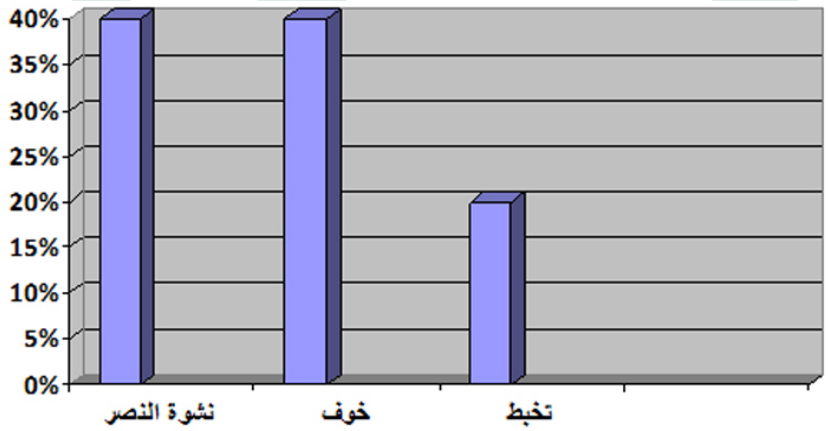

الشكل ١ : كيف كان المزاج العام عشية تحرير إدلب؟

السؤال الثاني: كيف يفسر الناس سهولة التحرير وانسحاب قوات النظام؟

تفاوتت الإيجابات ما بين مستغرب لهذا الانهيار السريع لقوات النظام (٢٠ ٪)، وما بين المتوقع له (٦٠٪).

المحامي هشام يقول: « كان الاعتقاد السائد باستحالة دخول الثوار والسيطرة على المدينة وسط التحصينات وأعداد العناصر الكبيرة من جميع أنواع التشكيلات العسكرية المتنوعة والتي استغرق النظام في إعدادها فترة طويلة عندما كان مسيطراً على إدلب».

فيما ذكر المواطن محمود: «أن أغلب الناس كانت تتوقع سهولة العمل العسكري بمدينة إدلب لأن النظام كان قبل ٢٠يوماً من المعركة يقوم بإغلاق الطرق لتسهيل نقل مايهمه من المحافظة».

أما عن أسباب ذلك، ٣٠٪ من العينة أرجعت ذلك إلى قوة جيش الفتح، فيما اعتبرت ١٠٪ من العينة أنّ النظام لن يستميت في الدفاع عن مدينة «سنية»، وقال ٢٠٪ أنّ النظام يعتمد على «شبيحة» ومرتزقة همهم السرقة ولا يوجد لديهم قضية للدفاع عنها، وأرجع ٤٠٪ السبب إلى الحرب النفسية والضغط النفسي الكبير الذي يرزح تحته جيش النظام.

وكان ملفتاً في الأمر أن أحداً لم يذكر وجود قوات أجنبية أو غريبة (تركية) في صفوف المقاتلين على عكس ما أشاعت وسائل إعلام النظام.

السؤال الثالث: بعد حوالي الشهر على التحرير، أين أصبح المزاج العام؟

بشكل عام عبرت العينة عن قلقها من المستقبل المجهول (٦٠٪) بسبب عدم قدرة الثوار على إدارة شؤون المدينة.

يقول المهندس أسعد:» هناك قلق من عدم قدرة غرفة عمليات جيش الفتح من اعادة الحياة الى طبيعتها واعادة تأهيل المرافق والخدمات وازدياد سوء الحالة الاقتصادية للناس».

كما يُشير المواطن محمد إلى أنه: « بعد شهر من التحرير ما زلنا ننتظر مستقبل المدينة وهي بيد الثوار المدراس الجامعات الخدمات الموظفين رواتب والنازحين».

هذا القلق تحول إلى إحباط عند جزء من

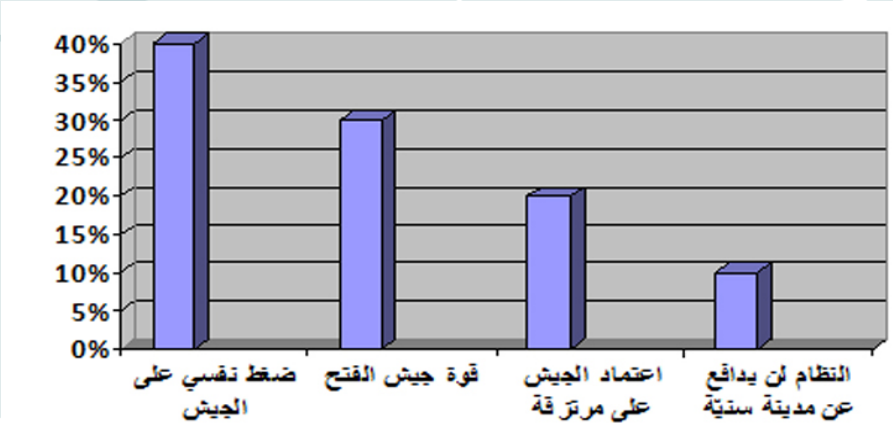

الشكل ٢ : كيف يفسر الناس سهولة تحرير إدلب؟

العينة (٢٧٪)، عبّر عنه المحامي هشام بالقول: «بعد شهر من التحرير باعتقادي بعد نزوح ٩٠ بالمية من سكان المدينة إلى الإحباط خاصة بعد التفاؤل والترقب باقامة منطقة عازلة، وخسارة الناس لأسباب معيشتهم من موظفين وتجارين وصناعيين والخسارة الأكبر خروجهم من مدينتهم التي تدمر بشكل وحشي من قبل النظام».

وهناك جزء من العينة ما زال متفائلاً (١٣٪) بسبب ارتفاع معنويات الثوار وانخفاض مستوى الضغط على الأرياف، إذ يقول المواطن محمود أن الناس « في مزاج جيد والحمد لله حيث خف الضغط على الريف».

الإعلامي عامر: «مزاج العوام أتجه الى المطالبة بالاستقرار الامني والاقتصادي».

السؤال الرابع: من هو التنظيم الذي كانت له اليد الطولى بالتحرير، وهل هناك تمايز في مواقف الناس من هذه التنظيمات؟

كانت معظم الإجابات مفاجئة، فلم يُعلن سوى (٢٠٪) بأنّ جهة النصرة هي الفاعل الأكبر بالتحرير، وهذا من الممكن أن يدلّ على أمرين: إما أنها الحقيقة فعلاً، أو أنّ جبهة النصرة لا تملك تأييداً جارفاً على عكس ما يُشاع.

٤٠٪ لم يستطيعوا تحديد التنظيم الذي له اليد الطولى.

يصعب تحديد من كان له اليد الطولى لضخامة اعداد الثوار المنتمية الى عدة تشكيلات وفصائل المشاركة في معركة التحريروالتي تعاضدت على العمل في الهجوم على اطراف المدينة». يقول المحامي هشام.

بينما يقول المواطن محمود: «لم يكن هناك أي تنظيم معين، كان الجميع يداً واحدة من أبناء الريف الإدلبي».

١٨٪) يعتقدون أنّ جيش السنة المتمثل) في كتائب الفاروق- حمص هو من كانت له اليد الطولى، فيما اعتبرت النسبة البقية (٢٢٪) أن حركة أحرار الشام كانت هي الفصيل الأبرز في التحرير.

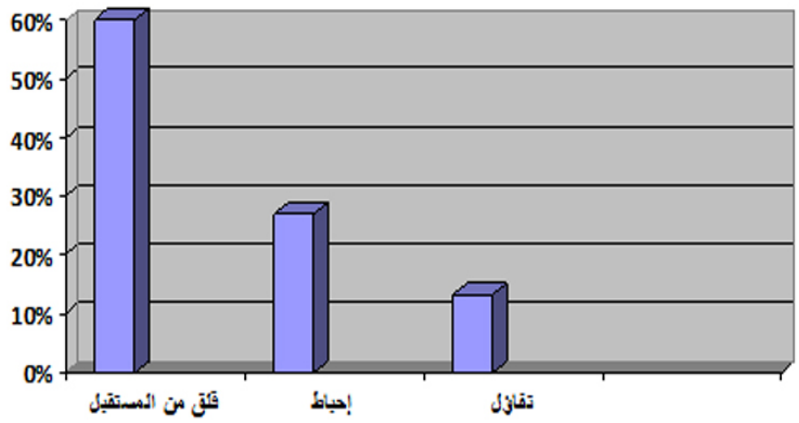

الشكل ٣ : كيف أصبح المزاج العام بعد شهرين من تحرير إدلب؟

السؤال الخامس: إذا كان بالإمكان وضع تقديرات تقريبية لنسبة المؤيدين بشدة للتحرير والمعارضين له، والدرجات بين الموقفين؟

صعُب على العينة تحديد نسب دقيقة، لكنّ الآراء تجمعت بشكل عام كالتالي:

المؤيدون ٧٠٪

المعارضون ٢٠٪

بدون تحديد موقف ١٠٪

يقول المحامي هشام: «من الصعب وضع نسب للمعارضة أو التأييد لمعركة التحرير للتخلص من النظام المسيطر من جهة عدم توقع نتائجها حيث كان الخوف متغلغل في نفوس المدنيين من إبداء أي رأي لتجنب الأذى من كلا الطرفين».

أما الإعلامي عامر فقال: « بشكل عام الجميع مؤيد لفكرة التحرير، إما لاستكمال مشروع وأهداف الثورة في الحرية وإسقاط النظام. وقسم آخر، ونظراً لسوء و تدهور الأوضاع المعيشية بين المواطنين في المناطق المحررة (خدمية وأمنية وصحية) وقلة التفاؤل بحياة كريمة مستقرة، أصبحوا بحاجة إلى تغيير كبير اياً كانت نتائجه سلبيتةً أم ايجابية».

فيما قال المواطن محمود: «نسبة المؤيدين للعمل كانت أكثر من ٧٥٪ بينما كانت النسبة البافية مترددة خوفاً من بطش النظام وفقدان الكوادر الخدمية والمؤسسات في المدينة وليس حباً للأسد»

السؤال السادس: ماذا يقول الناس عن تأثير التحريرعلى حياتهم اليومية؟ وما هي تخوفاتهم؟ وكيف يستعدون لمواجهتها؟

فيما يلي أبرز الإجابات:

المحامي هشام: «خيبة أمل لفقد مصدر المعيشة من رواتب بالنسبة للموظفين وأعمال التجارين والصناعيين والتهجير خارج المدينة من قبل النظام بكافة أنواع الأسلحة».

الإعلامي عامر: « من المعروف لدى الناس عن النظام أنه يقوم بتدميرأي منطقة يخسرها و يبدأ بقصف ممنهج للبنى التحتية و أماكن التجمعات السكنية للمواطنين و العسكرية للثوار، و على هذا بدأت حركة النزوح باتجاه المناطق البعيدة عن مدينة إدلب بالرغم من عدم قدرة المناطق المنزوح إليها

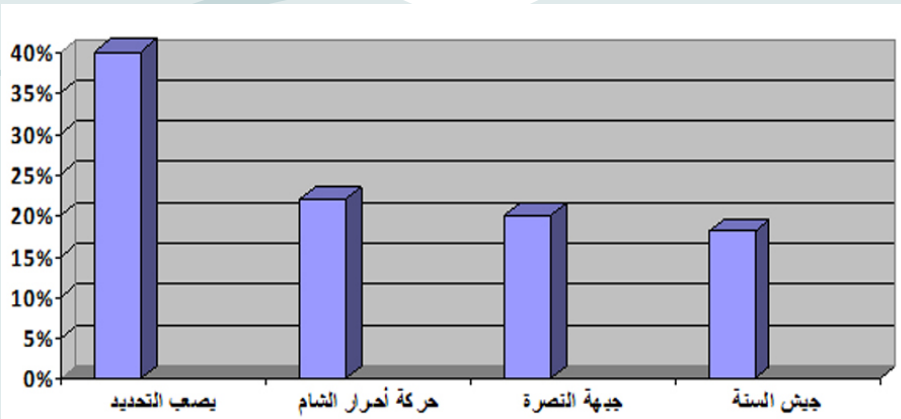

الشكل ٤ : من هو التنظيم الذي كانت له اليد الطولى في تحرير إدلب؟

على الاستيعاب، كما تزامن هذا النزوح مع التفاؤل بفتح الحدود السورية التركية التي لم يعرف الناس مبرراً رسمياً لهذا الإغلاق.

الناس لم يستعدوا في هذه الفترة لشيء معين إنما اعتادوا على التأقلم مع الحياة الآنية مع وجود تفاؤل بمنطقة عازلة تحميهم من شر طيران الأسد».

المهندس أسعد: « أصبح هناك غلاء بالمعيشة وزادت سوءاً على سوء، فارتفع سعر جرة الغاز إلى أن أصبح ٤٣٠٠ ل.س. وارتفع سعرالوقود وخاصة البنزين نتيجة قطع طريق حماة الذي كان يزود النظام بهذه المواد. كذلك عدم قبض الموظفين رواتبهم من قبل النظام وتخوفهم من عدم وجود بديل من قبل جيش الفتح خاصة مع غياب فرص العمل في ظل القصف الجوي اليومي من قبل طائرات النظام،إضافةً إلى التخوف من استمرار سياسة النظام بهدم المرافق العامة والبيوت السكنية».

المواطن محمد: « التحرير سيؤثر على كل مفاصل الحياة، الخوف يتركز على تأمين المعيشة والخوف الأكبرمن انتقام النظام».

المواطن محمود: « الحياة بشكل عام أصبحت أفضل، أما الأمر الذي يتخوف منه الناس فهو استخدام النظام المجرم للسلاح الكيماوي وهم لا يماكون سوى التجهيزات البدائية والبسيطة».

السؤال السابع: ما هي القصص والشائعات التي يتداولها الناس ولا تنشرها وسائل الإعلام؟

فيما يلي أبرزت الإجابات:

المحامي هشام: «إقامة منطقة عازلة بعد التحرير».

الإعلامي عامر: « تسلم الحكومة المؤقتة إدارة محافظة إدلب مع علمهم بالمعوقات والمنطقة العازلة إن تسلمت الحكومة ذلك».

المهندس أسعد: « دخول ألفي مقاتل من قوات الجيش التركي واشتراكها بالمعركة».

المواطن محمد: « القصص تتركز حول هل ستصبح إدلب عاصمة المناطق المحررة ويكون هناك حظر جوي، وهل سيأتي الائتلاف في ظل تهديد النصرة للائتلاف؟».

المواطن محمود: « لا يوجد أمريمكن أن يُخبئ في ظل هذه الأحداث خصوصاً بوجود شبكة الانترنت».

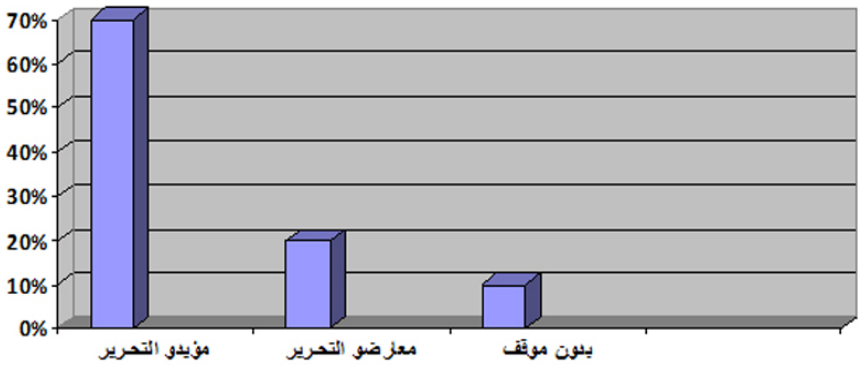

الشكل ٥ : تقديرات تقريبية لنسب مؤيدي التحرير والمعارضين لهم؟

السؤال الثامن: من أي وسائل إعلام يتقصى الناس معلوماتهم عن التحرير؟

من الفيس بوك: ٤٠٪.

من التنسيقيات: ٢٠٪.

من الفضائيات: ١٠٪.

من المكاتب الإعلامية للفصائل المقاتلة: ٢٠٪.

من توارد الأخبار شفهياً بين الناس: ١٠٪.

إذاً يُلاحظ ضعف الاعتماد على الفضائيات كمصدر للأخبار، وغياب تام للصحافة ووكالات الأنباء.

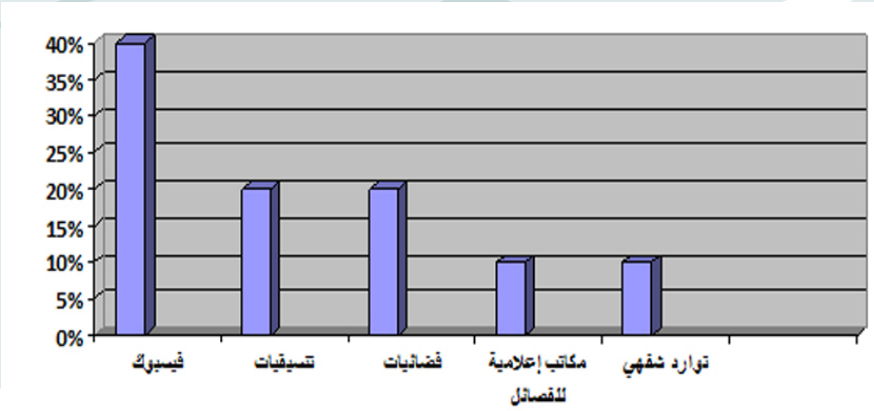

الشكل ٦ : من أي وسائل إعلام يتقصى الناس معلوماتهم عن تحرير إدلب؟

ثانياً- مدينة سلمية

الحدث

في ليل ٣١-٣-٢٠١٥، وفي حوالي الساعة الواحدة، بدأت القذائف تنهال على القرية بعد أنباء عن دخول داعش القرية حوالي الساعة ١٢ ليلاً، وسمع الأهالي أصوات إطلاق رصاص غزير، فبدؤوا بالنزوح عن القرية بسياراتهم، ومن خرج من القرية خلال الساعتين الأوليتين من بدء القصف تجنب المجزرة، وفعلياً من معهم سيارات فقط هم من نجوا، وفي حوالي الساعة الثالثة ليلاً دخلت داعش القرية وسط أنباء عن انسحاب حواجز النظام وقواته، وسيطرت على قسم كبير من الحارة التي حدثت فيها المجازر، وفي حوالي الثامنة صباحاً جاء جيش النظام بتعزيزات ضخمة، وكانت قوات داعش قد انسحبت قبل وصول الجيش، أي أنه لم تحدث اشتباكات فعلية بين الطرفين.

وبحسب موقع سراج الالكتروني، فقد نقلت المعارضة السورية حولة حديد شهادات من بعض الأهالي الناجين من مجزرة قرية «المبعوجة» التابعة لمدينة سلمية بريف حماة، أكدوا فيها أن جميع ضحايا المجزرة هم من المدنيين، وأن حواجز النظام انسحبت فجأة من محيط القرية بعد هجوم تنظيم «الدولة» على القرية.

في النهاية، ارتفعت حصيلة قتلى الهجوم الذي شنّه مقاتلون تابعون لتنظيم «الدولة الإسلامية» إلى نحو ٧٠ قتيلاً، معظمهم من المدنيين. ولا يزال نحو ٣٠ مدنياً مختطفين لدى عناصر التنظيم.

وأكد أحد الناجين من المجزرة، فضّل عدم ذكر اسمه، لـ«العربي الجديد»، أن «مسلحي داعش حشدوا عدداً من الدبابات قبل الهجوم بساعتين، انطلاقاً من قريتي صلبة وقليب الثور، وكانت الدبابات مرئية لقوات النظام الموجودة في صبورة، التي تبعد نحو أربعة كيلومترات عن المبعوجة،ولكنهم لم يحرّكوا ساكناً.

شبكة حنطة للدراسات والنشر» توجهت» بالأسئلة التالية إلى عينة عشوائية مؤلفة من ١٥٠ شخصاً ممن تزيد أعمارهم عن ال ١٨ عاماً.

الأسئلة

١..كيف كان المزاج العام عشية مجزرة المبعوجة؟

٢. ما هي التعابير التي يستخدمها الناس- الموالون والمعارضون- في حياتهم اليومية (مفردات، أسماء تنظيمات، أوصاف، شتائم، ...الخ)؟

٣.ما تأثير ما حدث على آراء الموالين والمعارضين، هل تغيّرت مواقف الناس، وكيف؟

٤.هل هناك تمايز في مواقف الناس من التنظيمات المسلحة (الدولة، النصرة، أحرار الشام، جيش حرّ...الخ)؟

٥.على ماذا يعول الناس، وأين يتوقعون أن تصل الأمور؟

٦.كيف يفسر الناس عدم قيام النظام بصدّ الهجوم؟

المخرجات

السؤال الأول: كيف كان المزاج العام عشية مجزرة المبعوجة؟

(٧٥٪) من العينة عبرت عن أنّ القلق والخوف هو ما ميّز المزاج العام للناس، فيما عبّر (٢٥٪) من العينة عن مشاعر الغضب والسخط على النظام وداعش على حد سواء.

اسماعيل- ٤٥ عاماً قال: «الترقب والقلق وسط تكرر الأنباء عن حشود لتنظيم الدولة «داعش» وتكرر الاستنفارات في القرى والريف القريب من مناطق سيطرة التنظيم».

أبو محمد ٥٣ عاماً ، مدرس قال: «المزاج العام: سخط وغضب».

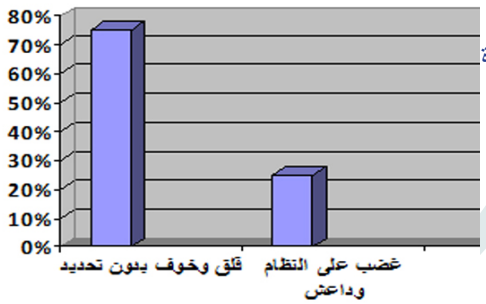

الشكل٧: كيف كان المزاج العام عشية مجزرة المبعوجة؟

السؤال الثاني: ما هي التعابير التي يستخدمها الناس- الموالون والمعارضون- في حياتهم اليومية (مفردات، أسماء تنظيمات، أوصاف، شتائم، ...الخ)؟

فيما يلي نماذج من الإجابات:

اسماعيل (٤٥عاماً)، صحفي: نظام – معارضة – دواعش – شبيحة – دفاع وطني ٤٧ – صقور الصحراء – جيش حر – جهة النصرة – اللي بروح بروح من كيسو – ماعاد فينا نتحمل- ما عم ننام.

علاء أبو علي (٣٣ عاماً)، تاجر: «المساواة ما بين الجيش و كتائب الدفاع الوطني من جهة و داعش من جهة اخرى من حيث المفردات.... جنرالات أمراء حرب...تطرف....التشبيح.... التعفيش....السبي...القتل الحرق الذبح... الإمام (الآغا خان) و مساعيه للتدخل».

محمد ع، طالب جامعي (٢٦ عاماً): «عصابات ميليشيات...مرتزقة...شبيحة».

أبو محمد، مدرس، (٥٣ عاما): «شبيحة، جيش حر...داعش....ليك الديب اجاك الواوي...مافينا عم نعيش...وين بدنا نروح بحالنا».

السؤال الثالث: ما تأثير ما حدث على آراء الموالين والمعارضين، هل تغيّرت مواقف الناس، وكيف؟

معظم الموالين (بنسبة ٩٠٪ حسب العينة) شعروا بخذلان النظام لهم. وبحسب العينة أيضاً فإن ٧٥٪ من المعارضين مازالوا على مواقفهم من النظام، فيما رأى ٢٥٪ أن ما حدث أحدث تقارباً بين الطرفين.

وإليكم بعض نماذج الإجابات التي وصلتنا:

اسماعيل- صحفي- ٤٥ عاماً: « الموالون شعروا بخذلان النظام لهم – المعارضون شعروا أن لا حول لهم ولا قوة وسط وقوعهم بين النظام وتنظيم الدولة – دعوات للهجرة قابلتها دعوات للبقاء في سلمية - عموم الناس رأت أن عليها الدفاع عن نفسها وأن لا أحد سيحميها».

علاء أبو علي- تاجر- ٣٣ عاماً: « أحدثت تقارب في وجهات النظر. لجهة الخلاص: فالكل بات يبحث عن طريقة أو أسلوب للنجاة مستقبلاً. والجميع مقتنع بأن النظام غير جدي في الدفاع عن المنطقة، هناك رواج لنظرية المؤامرة».

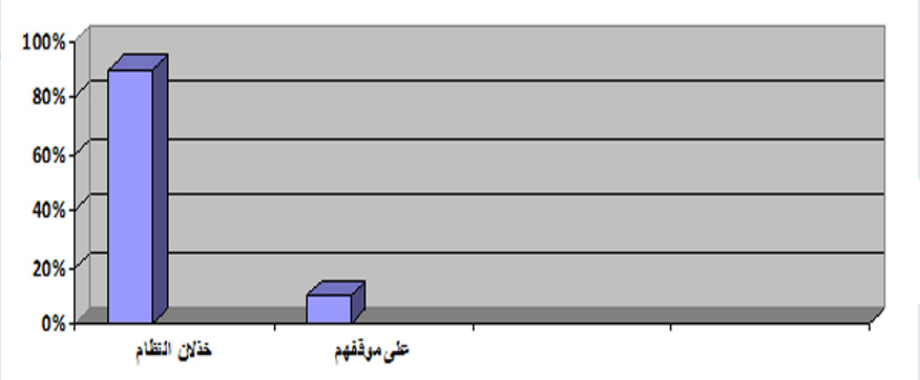

الشكل ٨ : تأثير مجزرة المبعوجة على الموالين؟

محمد ع- طالب جامعي- ٢٦ عاماً: « تأثير ما حدث....بالنسبة للمعارضين غالبا نفس التمترس و الآراء ...بالنسبة للموالين ثار تساؤل لماذا لم يقم النظام بتوفير الحماية الكافية للمنطقة و تركها لقمة سائغة بيد داعش».

أبو محمد- مدرس- ٥٣ عاماً: « تأثير ما حصل ....المعارضة بقيت على مواقفها و الموالاة سخط من تلكؤ النظام بالنسبة لحماية المدنيين و احساسهم بالخذلان».

السؤال الرابع: .هل هناك تمايز في مواقف الناس من التنظيمات المسلحة (الدولة، النصرة، أحرار الشام، جيش حرّ...الخ)؟

الجميع يعتبر أنّ العدو الأول هو تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»، هناك تعاطف مع الجيش الحر، لكن في نفس الوقت هناك إحساس بقلة الثقة بسبب ضعفه وعدم تواجده في المنطقة، هناك تعاطف بسيط مع حركة أحرار الشام، وبشكل أقل مع جهة النصرة.

يقول علاء أبو علي- تاجر- ٣٣ عاماً: « اقتربت الآراء رغم عدم وجود تمايز كبير سابقاً، خاصة أن الهجوم طال أساساً المدنيين وعملية اختطاف النساء بالنسبة لجهة النصرة و داعش و حملة السلاح بشكل عام. بالنسبة للجيش الحر لم يُذكر كثيراً لقناعة أنه غير متواجد في هذه المنطقة».

أما أبو محمد- مدرس- ٥٣ عاماً فيقول: «هناك تفريق بين كل الفصائل الإسلامية و الجيش الحر....فهناك جو عام من عدم الثقة بالكتائب الاسلامية عموماً والمتطرفة منها خصوصاً الذين لا يحملون أجندة وطنية، أما الجيش الحر فهناك نوع من الثقة به ويتمنون الدعم الكامل له».

السؤال الخامس: على ماذا يعول الناس، وأين يتوقعون أن تصل الأمور؟

معظم من استهدفتهم العينة (٦٨٪) يعولون على حلّ سياسيّ (في الواقع يتمنونه أكثر مما يعولون على حدوثه)، فيما يعول البعض على التسلح الذاتي للدفاع عن النفس في وجه داعش (١٤٪)، والنسبة البقية يائسة جداً وترى أن الأمور تسير نحو المجهول.

فاسماعيل- صحفي- ٤٥ عاماً، يقول: «البعض يعول التسلح ليتمكن أبناء المنطقة من الدفاع عن أنفسهم».

فيما يرى محمد ع- طالب جامعي- ٢٦ عاماً: «أنّ الناس تُعول على حل سياسي بالنتيجة، وبالنسبة لمآل الأمور فالرؤيا ضبابية».

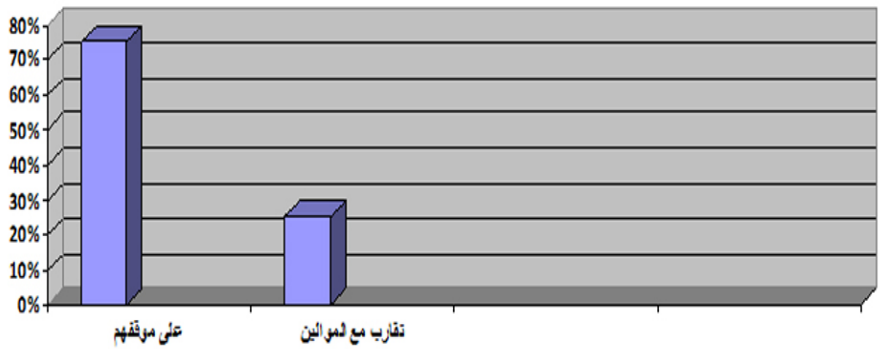

الشكل ٩ : تأثير مجزرة المبعوجة على المعارضين؟

السؤال السادس: كيف يفسر الناس عدم قيام النظام بصدّ الهجوم؟

المؤيدون اعتبروا أن في الأمر خيانة وخذلان، فيما يرى المعارضون أن النظام لا يهمه سوى استثمار المجازر سياسياً ليظهر بمظهر حامي الأقليات وضمانة البلد.

ختاماً:

بذلك نكون قد أنهينا استطلاعنا الشهري الأول، واضعين نتائجه بين يدي السادة القراء، والمهتمين، لاستنباط المزاج العام لسكان المناطق المعنية تجاه الأحداث الهامة التي يمرون بها، لإدراكنا أن أي محاولة لإيجاد أي حل يجب أن تنطلق أساساً من ما يريده الناس، آخذين في الاعتبار مصالحهم ورغباتهم.

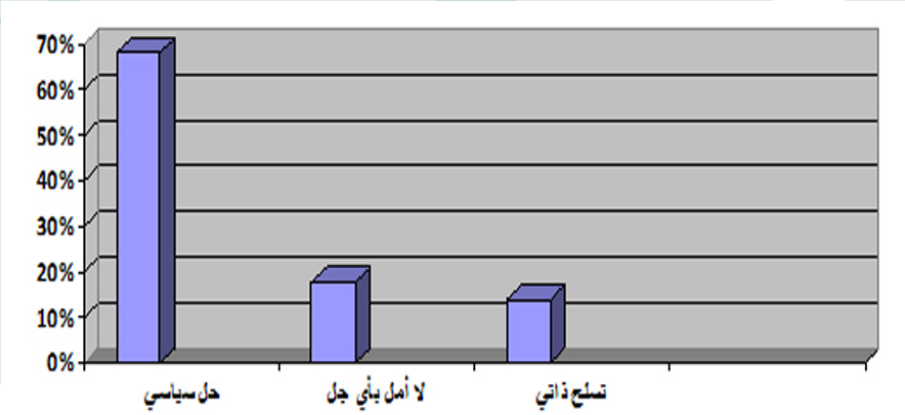

الشكل ١٠ : على ماذا يعوّل الناس في سلمية؟

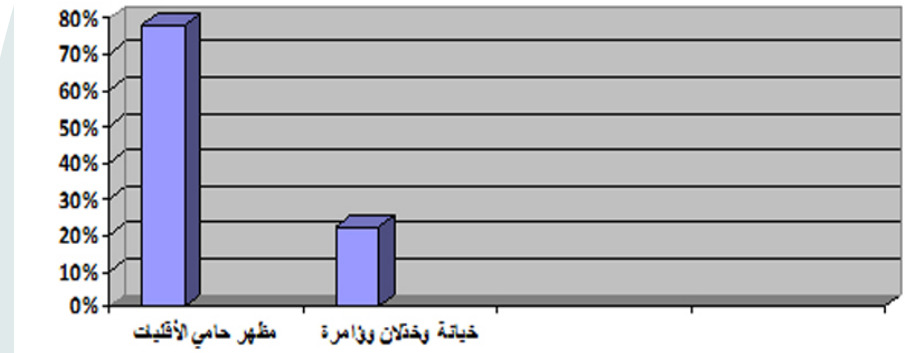

الشكل ١١ : كيف يفسر الناس عدم قيام النظام بصد الهجوم؟

المبعوجة

محمد صالح - كاتب سياسي

قرية المبعوجة التي تقدمت إلى واجهة الحدث السوري، أين تقع وما تاريخها؟

المبعوجة قرية شمال شرق السلمية، وتبعد عنها مسافة ٢٧ كم، بُنيت في أواخر العهد العثماني وبالتحديد في ١٩٠١ من قبل العائلات القادمة من القدموس والشيخ بدر.

كان الهدف الأساسيّ من بناء الحواضر في تلك المناطق هو ردّ غزوات البدو عن المدن، وقد قامت الدّولة العثمانيّة بتسليح النّاس وإعفائهم من الخدمة العسكرية.

سُميت بالمبعوجة لكثرة ينابيعها إذ كان الماء يخرج إليك بمجرد حفر بضعة سنتمترات في أرضها، وكان فيها بضع ينابيع أكبرها العين الغربية، وأبو عمّاش، وقناة عايد، وقناةٌ رومانيةٌ تتصل ببقية القرى غرباً. ويُقال أنّ القناة الرومانية كانت تتصل بالفرات.

تمّ تأسيس أوّل مدرسة خاصّة في العام ١٩٣٤، وأوّل مدرسة حكومية في العام ١٩٤٤، وفي العام ١٩٥١ تمّ تأسيس مدرسة المبعوجة الرّيفية ومدرسةٌ قريبة منها للإناث.

كانت البساتين وكروم العنب تُغطّي مساحات كبيرة منها ولاتزال تلك المناطق تُسمّى بالكرم أو البستان رغم زوال كلّ الأشجار وذلك بدأ بعد الحرب العالمية الثانية وانتشار زراعة القطن.

في العام ١٩٧٥ جفّت آخر ينابيعها وبقيت السقاية تعتمد على الآبار، ولكن الآبار بقيت في تراجع مستمر بسبب عدم وجود سياسة مائية صحيحة في كلّ البلاد.

اليوم يعود جيرانها لغزوها بالاتفاق مع تنظيم الدولة الإسلامية وبدعمٍ تركي أيضاً، ولكنه مقلوباً.

جسر الشغور.. محررة بالكامل

حسن ممس - حنطة

بعد سلسلة الانتصارات المتتالية التي قام بها جيش الفتح في محافظة إدلب الشهر الماضي، أعلن الجيش في يوم الأربعاء الواقع في ٢٢ نيسان عن بدء معركة نفير في جسر الشغور، آخر أكبر معاقل النظام في محافظة إدلب.

بدأت العملية بقصفٍ صاروخيٍّ ومدفعيّ، رافقه قصفٌ بمدافع جهنم على الحواجز في أطراف المدينة، وقد قامت جبهة النصرة بعدة عملياتٍ استشهادية مع بدء المعركة، أوّلها كان في حاجز (زليطو) في المدخل الشمالي للمدينة، حيث استطاع الاستشهادي ركنَ سيارته بالقرب من الحاجز، والخروج منها وتفجيرها عن بعد، أمّا العملية الثانية فقد كانت عند حاجز (عين السبيل) من الجهة الغربية للمدينة، حيث دخل الاستشهادي في صفوف قواتِ النظام، وقام بتفجير نفسه ممّا أدّى إلى مقتل وجرح العشرات في صفوف قوات الأسد، وتابعت قوات جيش الفتح تقدُّمها على جميع المحاور في المدينة، وما هي إلّا ساعاتٌ قليلة حتّى أعلن الثوّار تحريرهم لكلٍّ من حاجز (زليطو) و(عين السبيل) وحاجز (الساقية) و(تل حمكة) في أطراف المدينة تحريراً كاملاً.

وقد تمّ إلقاء القبض على شبيحين من شبيحة جسر الشغور مع بدء الاشتباكات في المدينة؛ وهما سامر عبد الله ريحان وأحمد عبد الله ريحان، وقد أجرى مراسل **حنطة** لقاءً مع (أبو العبّاس) أحد مقاتلي جبهة النصرة وسأله عن وضع المعركة ما هو الهدف منها؟ وإن تمَّ التحرير فما هي مخططاكم القادمة؟ فقال: «المعركة تسير كما خُطط لها، وهمم الثوّار عالية، والهدف من المعركة هو قطع طريق (أريحا-اللاذقية) خط إمداد قوّات النظام، والسيطرة شبه الكاملة على محافظة إدلب، وبعد انتهاء التحرير بإذن الله سوف تكون وجهتنا إلى اللاذقية حيث ستكون الملحمة الكبرى.»

وعندما تم سؤاله عن عدد الشهداء الذين سقطوا من طرفهم وعدد قتلى النظام، قال: «سقط خلال المعركة ما يقارب ١٥ شهيداً من مجاهدينا، بينما قُتل العشرات وجُرح المئات في صفوف قوات النظام وشبيحته، حيث كنّا نسمع أصواتهم وهم يستنجدون ويطلبون سيارات الإسعاف التي لم تهدأ منذ انطلاقة المعركة».

وبعد اشتداد وتيرة القصف التمهيدي على المدينة أعلن الثوّار عن بدء مرحلةٍ ثانيةٍ وهي مرحلة الاقتحام، وبالفعل زجَّ الثوّار بمجموعاتٍ من الانغماسيين إلى مدينة جسر الشغور من ثلاثة محاور، الجهة الشمالية والشرقية والغربية، وكانت النتيجة دخول الثوّار من الجهة الشمالية للمدينة، وسيطرتهم على أكبر الحواجز هناك، وهو حاجز (زليطو)، واغتنموا دبابةً وسيارة زيل عسكرية محمَّلة بالذخيرة كانت تتأهَّب للهروب، وتابع الثوّار ضغطهم على الحواجز الأخرى على أطراف المدينة، فسقط حاجزان آخران من الجهة الشرقية هما حاجز (العلاوين) وحاجز (الدبس).

وأعلن الثوار صباح يوم السبت الموافق لـ ٢٥/٤/٢٠١٥ عن تحرير مدينة جسر الشغور بالكامل والسيطرة على جميع الأفرع الأمنية والمخابراتية في المدينة، بينما هبّت حشود سكان المدينة في النزول إلى الشوارع، وبدء التكبير في الجوامع فرحةً وابتهاجاً بهذا النصر المبين الذي حققه جيش الفتح.

عملياً فقد تحولت مدينة جسر الشغور إلى مركزٍ إداريٍّ للنظام السوري بعد انسحاب قواته يوم ٢٨ مارس/ آذار من مدينة إدلب، مركز المحافظة، إثر هجومٍ لجيش الفتح.

جاءت هذه المعركة بالتزامن مع معركتين أُخريين، انطلقت الأولى في سهل الغاب، والثانية لتحرير معسكر (القرميد)، حيث قام ثوّار الغاب بتدمير بعض الحواجز وتحريرها بهدف قطع طرق الإمداد عن قوات النظام المتواجدة في جسر الشغور وأريحا، أمّا معركة تحرير معسكر (القرميد) فقد كُلّلت بالنجاح التام، وتم تحرير الحاجز من قبل قوات جيش الفتح.

بعد هذه الانتصارات المتتالية في مدينة إدلب يعيش الشارع الساحليُّ حالة من التخبّط، إذ لا يُريد الساحليون من أبناء المليشيات مواجهة ثوار إدلب، خاصةً وأنهم طردوا الجيش النظامي المدجج بالسلاح والتحضيرات. الجيش الذي أصبح قزماً، وكان قبل أيام قليلة يختبئ بقواته في منطقة جسر الشغور، وبات عبئاً، فيما حوّل النظام مستشفياتهِ لمستشفيات عسكرية، وأقبيةٍ للمخابرات وأماكن التعذيب.

وأخيراً فإنَّ النصر في معركة النصر يعتبر أكبر فوزٍ على مستوى الثورة السورية منذ انطلاقتها، نتيجة لأهمية المواقع التي تجري فيها من جهة، ولعدد الجبهات التي فُتحت في لحظة واحدة من جهة ثانية.

محمد صبرا.. على بيدر حنطة

المدير التنفيذي لحزب الجمهورية السوري
(هذا اللقاء بالتعاون مع إذاعة نسائم سوريا)

حاوره سامر نقشبندي

بدايةً كيف ينظر العرب إلى ما يجري اليوم في سورية؟

كي نُجيب عن هذا السؤال يجب أن نطل إطلالة سريعة على تطورات الموقف العربي منذ بداية الثورة السورية وحتى الآن، للأسف الحاضنة الوحيدة للعمل العربي المشترك هي جامعة الدول العربية، ويعلم الجميع ما تعاني منه جامعة الدول العربية من أمراض، وفشلها في أكثر من استحقاقٍ على المستوى العربي، سواء في القضية الفلسطينية أو ما حدث في فلسطين والسودان والصومال وأريتيريا، جامعة الدول العربية فشلت حتى في وضع شبكة أمان محددة، وفشلت في وضع أساسياتٍ للعمل العربي المشترك تستطيع من خلاله فعلاً أن تكون فاعلةً في الوسط العربي، وأن تستطيع تنفيذ سياسةٍ متوافقٍ عليها في الحد الأدنى بين الدول العربية.

في شهر تشرين الثاني من السنة الأولى للثورة رأينا بداية تحرك جامعة الدول العربية بشكلٍ قانوني، وصدر أول قرارٍ منها يتعلق بالشأن السوري، وكانت مقاربةً بسيطةً جداً تدعو إلى انتخاباتٍ رئاسيةٍ مبكرة، وإلى إصلاحات، كما تدعو إلى قيام حوارٍ وطنيّ بين كل الأطراف السورية، تطوّر هذا الموقف لاحقاً في الشهر الأول ٢٠١٢، إلى مبادرةٍ كاملة، تحدد فيها جامعة الدول العربية مجموعةً من الخطوات، منها سحب الجيش من المدن، وسحب العناصر المسلحة، وإطلاق سراح المعتقلين، حرية التنقل، حرية التظاهر، حرية الصحافة، قيام انتخابات رئاسية مبكرة. بالطبع تم رفض هذه المبادرة مباشرة من قبل النظام السوري، ومن ثم تم تبنيها من قبل الجمعية العامة للامم المتحدة، والتي أُفرغت فيما مضى بمبادرة السيد كوفي عنان مبادرة الست نقاط، والقائمة أصلاً على قرار الجامعة العربية، ومن ثم تم تطوير مبادرة كوفي عنان إلى أن تم صدور القرار رقم ٢٠٤٨، المتعلق بمبادرة مجلس الجامعة العربية والذي تبنى مبادرة النقاط الست.

في تلك الفترة هل تخوف حكام وملوك العرب فعلاً على عروشهم؟ بعد سقوط بن علي ومبارك والقذافي، فقرروا حقاً وقف الربيع العربي في سورية؟

أغلب الدول العربية تقارب الوضع في سورية من زاوية وضعها الداخلي، هي لا تقارب الوضع من سورية بنظرة مجردة موضوعية، أو بتعاطف إنساني بالحد الأدنى كما نقول مع ما يحدث في سورية، هي دائماً تنظر للحدث السوري لكن عينها موجهة لوضعها الداخلي، وهذا ما رأيناه في أكثر من دولة عربية. للأسف ما حدث حقاً هو وجود ثلاثة محاور إن جاز التعبير، في الوضع العربي حول مقارنته بما يحدث في سورية، هناك محور أقرب إلى موقف النظام أو لصيق بموقف النظام، هذا المحور موجود الآن في العراق وفي جزء من المحور السياسي اللبناني وهو جزء مؤثر في قرارات الدولة اللبنانية، وكلمة النأي بالنفس التي تستخدمها الحكومة اللبنانية عن ما يحدث في سورية، بينما يدخل عناصر ميليشيا مسلحة إرهابية إلى سورية هي عناصر حزب الله، مشاركة بشكل واضح في الحكومة اللبنانية، هذا لا يعني أن الحكومة اللبنانية نأت بنفسها عن ما يحدث في سورية، هي مسؤولة مسؤولية كاملة عن كل عنصر من عناصر حزب الله دخل إلى الداخل السوري. ورأينا في العراق أيضاً اصطفافاً كاملاً إلى جانب النظام ، فقد فُتحت الحدود أمام تدفق الإرهابيين الذين دخلوا سورية من العراق، والذين نسميهم الأن اختصاراً باسم «داعش» هؤلاء تنظيم عراقي لا دخل لسورية به، تنظيم عراقي بقياداته وتوجهاته، بسياسته وبعناصره المقاتلة، هم تنظيم جاء بتسهيل من نوري المالكي، وقد رأينا قبل ظهور «داعش» في سورية عملية الهروب الجماعي من سجن أبو غريب، حوالي ٥٠٠٠ سجين، والتي قال عنها وزير العدل العراقي أنها عملية مفبركة ومركبة، وهذه العملية أدت إلى نشوء النواة الأولى لـ «داعش» في سورية، هذا هو المحور الأول.

المحور الثاني، هو محور متردد جداً، هو يخشى تماماً على وضعه الداخلي من جرّاء ما يحدث في سورية، هذا المحور يتمثل حالياً في الجزائر والسودان، وهذا موقف ملتبس جداً لهذه الدول الثلاث. نحن رأينا في جميع قرارات الدول العربية بأنه هنالك نوع من التحفظات، الجزائر تحفظت على كل القرارات التي صدرت في الجامعة العربية بخصوص القضية السورية، فهي تحفظت

على تعليق مشاركة النظام في الجامعة العربية، وتحفظت على مسألة الاعتراف بالائتلاف كممثل وحيد للشعب السوري، وتحفظت على تحويل مقعد سورية في الجامعة العربية إلى المعارضة، الجزائر تحفظت على مجمل القرارات. السودان مثلاً موقفه مازال ملتبساً جداً حول ما يحدث في سورية، الوقوف مع الحياد بين الشعب والنظام يعني الوقوف ضمناً مع النظام لأنه لا يمكن تصور فكرة وجود الحياد في ظل مذابح تطال شعب بكامله، وفي ظل تدمير دولة بكاملها ومقومات دولة بكاملها.

المحور الثالث، الذي يؤيد عملية إسقاط النظام، باعتبار أن بشار الأسد لا يمكن أن يكون جزءاً من النادي الرئاسي العربي، هذه الدول مشكلتها أنها غير موحدة سياسياً تجاه القضية السورية، رأينا سابقاً أن هناك تنافساً بين جزأين من هذا المحور، رغم كل الدعم الذي قدمته هذه الدول، مثل السعودية وقطر، لكن لكلّ منهما له مقاربته الخاصة للوضع في سورية، لذلك كان هذا الدعم مشتتاً نوعاً ما، والصراع الإقليمي ساهم بتفتيت الوضع في الداخل السوري، ونحن رأينا الحركات العسكرية التي لم تتمكن من إنشاء قيادة عسكرية مركزية تستطيع مواجهة النظام حتى على المستوى السياسي. رأينا صراعات كبرى ومدمرة للعمل السياسي، سواء كان ذلك على مستوى المجلس الوطني سابقاً أو على مستوى الائتلاف. الآن هناك فرصة تاريخية أمام الشعب السوري، وأستطيع القول أن هناك فرصة لم تتح في الثورة حتى الآن، هناك نوع من التفاهم في مجلس التعاون الخليجي، بعد أن استشعر مجلس التعاون الخليجي بتعاظم الخطر الإيراني.

الموقف المصري من الثورة بعد انقلاب السيسي أن جاز التعبير عن الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي، الرئيس مرسي كان موقفه واضحاً بالوقوف إلى جانب ثورة الشعب السوري، الآن السيسي انقلب ١٨٠ درجة على الموقف السوري، لدرجة أنه يُظهر تأييده لبشار الأسد علناً، ما سرّ هذا التبدل الغريب في الموقف المصري؟

للأسف الموقف المصري وكنا قد أشرنا في رسالة أرسلتها أنا منذ حوالي ثلاثة أشهر إلى رئيس مجلس الشؤون الخارجية، ومنظمة تضم الدبلوماسيين المصريين العاملين في الخارجية المصرية السفير محمد شاكر كان مضمونها الحديث عن هذه المسالة بالذات، أن مقاربة النظام المصري لما يحدث في سورية تأتي من زاوية نظر النظام المصري الحالي للوضع الداخلي في مصر. النظام المصري الآن يخوض معركة مفتوحة، يعلنها يومياً على الإعلام مع حركة الإسلام السياسي سواءً كان تنظيم الإخوان المسلمين أو غيره من الحركات، وبالتالي هو ينظر إلى الوضع السوري كأنه انتداب لما يحصل في الداخل المصري، لهذا السبب نرى أن موقف الخارجية المصرية يقول دائماً بأن بشار هو جزءٌ من الحلّ، ويجب أن يكون هنالك مرحلة انتقالية مؤقتة يكون بشار من ضمنها، وأن الهدف الأساسي ليس بناء عملية انتقالية ديمقراطية، وبناء الدولة الوطنية السورية الديمقراطية، وإنما التركيز الأساسي هو على محاربة الإرهاب. هذا الموقف يتماهى مع الموقف الروسي من ناحية، ويتماهى مع الموقف الإيراني من ناحية ثانية، وهو يصب في خانة دعم علني ومباشر للنظام السوري.

الموقف المصري الآن يُشكل ثغرة في جدار الموقف العربي ساهم بتردد الكثير من الدول الفاعلة على المستوى الدولي في الإقدام على حسم ما يحدث في سورية وفق اتجاهات تصب في مصلحة السوريين، السيناريوهات المطروحة الآن على الطاولة التي تناقش في إطار المنظومات العربية السياسية الرسمية، أو في إطار المنظومات الدولية هي ثلاث سيناريوهات، لا يوجد سيناريو رابع حتى اللحظة: سيناريو يقارب المسألة السورية من أن بشار الاسد هو مجرم حرب لا يمكن أن يبقى جزءاً من مستقبل سورية ويجب إسقاطه، وكلمة إسقاطه لا تعني إسقاطه عسكرياً، حتى اللحظة جميع الدول العربية تتفق على نقطة معينة، بأن الحل في سورية هو حل سياسي وليس حلاً عسكرياً، لكن هناك فوارق في كلمة الحل السياسي، الضغط العسكري على النظام من أجل حلول سياسية جوهرية تفضي إلى رحيل النظام، هذه رؤية بعض الدول العربية.

بعض الدول العربية الأُخرى تقول لا، الحل السياسي يجب أن يكون عبر حوار معمق بين النظام والمعارضة، وهذا هو السيناريو الثاني، وهذا الحوار المعمق يجب أن يفرغ عملية انتقالية، تحددها الخارجية المصرية عندما تقول بأن سنتين كافيتين لعملية سياسية انتقالية يكون فيها بشار الأسد موجوداً في سورية لكن دون صلاحيات كبيرة، كالتي يتمتع بها الآن، بحيث يُنقل جزء من صلاحياته إلى الحكومة الانتقالية.

السيناريو الثالث الذي تتبناه بعض الدول العربية جزئياً، وهو الذي يتحدث بأن المشكلة في سورية ليست مشكلة سياسية بالمعنى المطروح، أي ليست مشكلة بين معارضة ونظام، أو بين شعب ونظام، بل تحولت إلى مشكلة مجتمعية، بين مكونات المجتمع السوري، وبالتالي لا بد من حواريجمع جميع مكونات الشعب السوري، ربما هذا الطرح أيضاً يؤيده ديميستورا على المستوى الدولي، وتؤيده بعض الدول الأوربية ولا سيما ألمانيا، وإسبانيا إلى حدّ ما.

يلاحظ معظم السوريون بأن الأنظمة الرئاسية العربية، الأنظمة الجمهورية

كالجزائر، ومصر، والعراق وربما السودان أيضاً تقف إلى جانب النظام. بينما تقف الأنظمة الملكية العربية إلى جانب الثورة، كيف نستطيع تفسير هذا التناقض؟

التناقض هو في بنية هذه الدول نفسها، الملكيات العربية تعيش حالة من الاستقرار، وكلمة الاستقرار ليست فقط الاستقرار السياسي، هناك مجتمعات قابلة بالأنظمة الملكية وتقرّ بشرعية هذه الأنظمة الملكية، وبالتالي هناك استقرار نفسي لدى هذه الأنظمة إن جاز التعبير، هي مطمئنة لوضعها الداخلي في هذا المستوى وفي هذه الحدود، بينما الأنظمة الرئاسية جاءت إما على الدبابات أو عبر انتخابات مزورة ومفبركة، يعني جميع الأنظمة التي تؤيد النظام في ممارساته مع الشعب السوري هي أنظمة أفرزتها انقلابات عسكرية كما نرى في السودان ومصر، أو افرزتها انقلابات عسكرية تبعها عملية انتقالية سياسية مفبركة كما حدث في الجزائر، وآخر انتخابات في الجزائر كانت فضيحة حقاً بحقّ الشعب الجزائري. لذلك نقول بأن هذه الأنظمة التي تعيش قلق الشرعية على وضعها الداخلي، هي تخشى تماماً من امتداد الربيع العربي إلى داخل دولها، هذه المنطقة منطقة متشابكة ومتشابهة لا يمكن حصر تأثير ما يحدث داخل الحدود. وقد رأينا بعد الحدث التونسي، امتداد هذا الحدث إلى ليبيا ومصر واليمن وسورية، وكان من الممكن أن يمتد إلى أكثر من دولة عربية عاشت بنفس الظروف التي عاشتها إما تونس أو ليبيا أو سورية أو حتى مصر. هناك أنظمة مزمنة حكمت هذه البلدان، جزءٌ منها في الثمانينيات وجزءٌ في

مطلع التسعينيات، هذه الأنظمة منفصلة تماماً عن شعوبها، فهناك كتلة هائلة من الشباب العربي، والمواطنون العرب بأغلبيتهم هم من جيل الشباب أي تحت سن الثلاثين، إذ أنّ الإحصائيات تقول بأن أكثر من ٦٠٪ من المواطنين العرب هم تحت سن الستين، جيل الشباب هذا أُبعد تماماً عن محور الحياة العامة، وهو يواجه ظروفاً اقتصادية قاسية بسبب عمليات النهب الممنهج لمقدرات هذه الدول، ولم يعد بالإمكان ضبطه ومنعه من الثورة.

يجب ألّا يغب عن بالنا أن هذه الثورات نشأت في البداية ثورات سلمية، ثورات تحمل أغصان الزيتون. ثورات قامت فعلاً على حالة الفرح الوجودي، فلأول مرة يستطيع الإنسان العربي منذ نهاية القرن العشرين أن يُعبر عن نفسه في الشارع وبصوت مرفوع. إدخالنا في لعبة الدم كان محاولة لضرب طموحات الشعب العربي في الثورة حتى يتردد الجميع ويقول لا أريد أن أصل لبركة الدم الذي وصلت إليها هذه الدول.

الموقف السعودي اليوم بعد تسلم الملك سلمان والمصالحة التركية – السعودية - القطرية، كيف انعكست على مسيرة الثورة؟

نقطة الانطلاق السعودي أنا أُسمّيها بالمراهقة الامبراطورية الإيرانية، إيران تستخدم عناصر قوة هي لا تستخدمها في الأساس. يعني إيران ووضعها السياسي والاقتصادي والعسكري لا يسمح لها أن تكون دولة مركزية في الإقليم لها أذرع واستطالات من البحر المتوسط إلى مضيق باب المندب إلى بحر العرب. هذه منطقة شاسعة جداً ولا يمكن لأي قوة إقليمية في وضع إيران وبحجم إيران أن يكون لها مثل هذا النفوذ، المراهقة الامبراطورية وعمى النفوذ الإيراني الذي ظنت بأنه متوفر لديها أدى حقيقة إلى صدام مباشر بين ما تريده إيران من تفتيت للمنطقة على أُسس طائفية وأُسس اثنية، وذلك حتى تستطيع أن تبقى دولة قوية ومركزية موحدة في خضم مجموعة من الصراعات الطائفية التي رأينا أن الإيرانيين قد أزكوها في لبنان وسورية والعراق واليمن، هذه السياسة الإيرانية أدت إلى وضع العرب جميعاً -وخصوصاً الدول الخليجية- أمام استحقاق سياسي وجوهري، السكوت على العربدة الايرانية يعني أن تصرفات إيران ستطال الداخل العربي ككل بما فيه مجلس التعاون الخليجي، فكان لا بد من وقفة أمام هذا النفوذ الإيراني الذي تمدد بشكل غير مسبوق، وبشكل وهمي إن جاز التعبير. إيران لا تستطيع أن تكون بهذا الحجم من القوة.

التغير في الموقف السعودي هو تغير جوهري وتغير أساسي، هو ليس تغيراً تكتيكياً مرحلياً، السياسة السعودية الآن تسير وفق رؤية

> ”الصراع الإقليمي ساهم بتفتيت الوضع في الداخل السوري، ونحن رأينا الحركات العسكرية لتي لم تتمكن من إنشاء قيادة عسكرية مركزية تستطيع مواجهة النظام حتى على المستوى السياسي. رأينا صراعات كبرى ومدمرة للعمل السياسي، سواء كان ذلك على مستوى المجلس الوطني سابقاً أو على مستوى الائتلاف. الآن هناك فرصة تاريخية أمام الشعب السوري، وأستطيع القول أن هناك فرصة لم تتح في الثورة حتى الآن، هناك نوع من التفاهم في مجلس التعاون الخليجي، بعد أن استشعر مجلس التعاون الخليجي بتعاظم الخطر الإيراني“

استراتيجية واضحة: يجب دفع إيران مرة ثانية إلى الداخل الإيراني، ويجب أن تنشغل بشؤونها الداخلية وأن تنسحب من المنطقة، بمعنى أن تسحب نفوذها من المنطقة عبر الاستطالات التي استطاعت أن تبنيها، سواء الميليشيات الطائفية في العراق او الميليشيات التي استقدمتها إلى سورية، او في لبنان أو في اليمن. هذه هي نقطة التقاء السياسة السعودية مع السياسة القطرية والتي كانت منذ بدايتها واضحة في رؤيتها من هذا الجانب، هذا التقارب السعودي القطري فعلاً أدى إلى تطور أساسي في الداخل السوري انعكس بشكل ملحوظ على التنسيق بين الحركات والفصائل العسكرية، كما حدث في الشمال وكما حدث في الجنوب. ولنكن صادقين، لولا التقارب السعودي القطري، ولولا تبريد الصراعات الداخلية في سورية، لما كان من الممكن تحرير بصرى أو تحرير إدلب، هذا المنجز الذي أنجزه المقاتلون السوريون طبعاً بجهودهم وبقوتهم، كان لا بد له من حاضنة سياسية تحمي هذه المنجزات العسكرية على الأرض، هذه الحاضنة شكلتها بالدرجة الأولى مواقف السعودية وعاصفة الحزم، والتفاهم السعودي القطري، وإلى حد ما التفاهم مع السياسة التركية.

في تصريح لك لوكالة اكي الايطالية وجهت نداء للدول العربية للتحرك ضد مطامع إيران في المنطقة العربية. هل حققت عاصفة الحزم فعلاً ما قامت من أجله؟ وهل من الممكن أن تتكرر عاصفة الحزم العربية في سورية؟

لا شك أنها حققت الهدف الأول والمرجو منها عربياً، فقد وجهت عاصفة الحزم رسالة قوية جداً إلى إيران بأن السياسة الناعمة التي كانت تستخدمها دول مجلس التعاون الخليجي، في موجهة التمدد الإيراني، لم تعد قائمة. وأنّ دول مجلس التعاون الخليجي تملك مخالبَ أيضاً، وتملك القدرة على نقل السياسة من مستواها الناعم واللطيف إلى المستوى العنيف كما حدث في اليمن. هذا هو الهدف الاول وأنا أظن بأنه تحقق بشكل كامل أما مسألة نقل عاصفة الحزم بالطريقة اليمنية إلى سورية هذه مسالة استبعدها تماماً لأن هنالك تشابكات أكثر تعقيداً في سورية من الوضع في اليمن، هناك حالة اشتباك إقليمي ودولي كبرى في سورية، غير موجودة في اليمن، الصراع في اليمن هو صراع بسيط ليس صراعاً مركباً ولا معقداً، لذلك كان من الممكن أن تكون عاصفة الحزم في اليمن بالشكل الذي رأيناه. في سورية عاصفة الحزم كما أراها من الممكن أن تتم بشكل آخر مختلف تماماً عن الوضع في اليمن، هذا لا يعني أننا لا نعيش عاصفة حزم في سورية إطلاقاً، أنا أعتبر أنّ ما نعيشه في سورية الآن هو عاصفة حزم، لكن بنكهة سورية.

ماهو الدور العربي المرتقب في سورية اليوم؟

الدور العربي المرتقب في سورية اليوم هو من خلال مركزة الدعم، العسكري والمالي لفصائل الثورة المسلحة، تقريب بين فصائل الثورة المسلحة، وممارسة النفوذ الموجود لدى الدول العربية، من أجل دفعها إلى التوحد والتنسيق ضمن إطار غرف عمليات مشتركة، كما رأينا جيش الفتح الذي لم يكن من الممكن تأسيسه لولا عاصفة الحزم السورية، وأقول عاصفة الحزم بالنكهة السورية، هذا التفاهم بين هذه الفصائل المسلحة هو الذي ساهم في هذا التقدم العسكري. الآن المطلوب من الدول العربية هناك قمة خليجية أمريكية، هذه القمة أرى أنها قمة مهمة جداً وأساسية في مقاربة الوضع السوري، لا سيما أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تحسم السيناريو الأمثل بالنسبة لها في ما يتعلق بالخروج من المأزق السوري. ما زالت الولايات المتحدة الامريكية تضع كل السيناريوهات على الطاولة، هي لم تحسم السيناريو الذي تعتقد بأنه السيناريو الذي يحقق مصالحها ومصالح دول الإقليم، أظن أن القمة الخليجية- الأمريكية ستساهم إلى حدّ ما في بلورة ومعرفة السيناريو الأفضل للولايات المتحدة الأمريكية. يجب أن أُشير هنا إلى أن ما صرح به وزير الخارجية الأمريكي البارحة أثناء لقاءه مع رئيس الائتلاف الوطني، كان تصريحاً يُعبر في الحد الأدنى عن حالة التخبط في السياسة الأمريكية، لم يكن واضحاً ما تريده الولايات المتحدة الامريكية. استخدم جون كيري مصطلح بأن بشار فقد كل القدرة على أن يكون جزءاً من سورية لكنه قال على المدى الطويل، ولم يقف عند كلمة جزءاً من مستقبل سورية، كلمة على المدى الطويل حقيقة أشعرتني بكثير من التخوف، هذا يعتبر إلى حد ما وكأنه اقتراب من السيناريو المصري، في مقاربة الوضع في سورية.

أخيراً.. هل سنشهد مفاجآت على الساحة السورية؟

هناك تطورات مهمة ومهمة جداً ستكون في بداية الشهر السادس، أتوقع بأن يكون هنالك آليات للحل بين الشهر السادس ونهاية هذا العام. سنشهد بداية التطورات منذ نهاية الشهر الجاري، وستبدأ هذه التطورات بشكل متسارع جداً لم يكن يتوقعه السوريون.

> **"الملكيات العربية تعيش حالة من الاستقرار، وكلمة الاستقرار ليست فقط الاستقرار السياسي، هناك مجتمعات قابلة بالأنظمة الملكية وتقرّ بشرعية هذه الأنظمة الملكية، وبالتالي هناك استقرار نفسي لدى هذه الأنظمة إن جاز التعبير، هي مطمئنة لوضعها الداخلي في هذا المستوى وفي هذه الحدود، بينما الأنظمة الرئاسية جاءت إما على الدبابات أو عبر انتخابات مزورة ومفبركة، يعني جميع الأنظمة التي تؤيد النظام في ممارساته مع الشعب السوري هي أنظمة أفرزتها انقلابات عسكرية كما نرى في السودان ومصر، أو افرزتها انقلابات عسكرية تبعها عملية انتقالية سياسية مفبركة كما حدث في الجزائر، وآخر انتخابات في الجزائر كانت فضيحة حقاً بحقّ الشعب الجزائري. لذلك نقول بأن هذه الأنظمة التي تعيش قلق الشرعية على وضعها الداخلي، هي تخشى تماماً من امتداد الربيع العربي إلى داخل دولها"**

ملاحظات حول مؤتمر القاهرة

زياد علي عيشة

انتهى مؤتمر القاهرة للمعارضة السورية والذي دام ليومي ٨و٩ حزيران والذي جمع عدداً من الشخصيات والتيارات السياسية في سورية وخلص إلى خارطة طريق للحل السياسي تهدف لتغيير جذري وشامل عبر آلية تنفيذ عملية وقادرة على الانتقال لتسوية سياسية تحقق الغاية المرجوة.

تؤكد الخارطة على مسؤولية السلطة بإيصال الثورة لحدود من الدموية غير المسبوقة من خلال إنكار المطالب المشروعة لها بالحرية والكرامة إضافة للرد الأمني، كما تؤكد أن القضية السورية دخلت مراحل متصاعدة من التعقيد والعسكرة الناجمة عن سياسات النظام القمعية وقوى التطرف والإرهاب والتدخلات المتعددة الأشكال التي حولت سورية لساحة صراع إقليمي ودولي ملوث بالعنف والمذهبية.كما تؤكد أنه لا مجال لاستمرار منظومة الحكم الحالية التي لا مكان لها ولرئيسها في مستقبل سورية. كما يجري التفاوض بين وفدي التفاوض والنظام برعاية الأمم المتحدة حيث يبرم الوفدان اتفاقا تنفيذيا لبيان جنيف ووضع جدول زمني وآليات واضحة وضمانات ملزمة للتأكد من التنفيذ.

لا شك أن الحل السياسي هو الذي ينشده معظم السوريين، ولكن الحل الذي يضمن لهم الحقوق من خلال تحديد المسؤوليات عن الجرائم وحاسبته وفق قانون عادل ومستقل. ويبدو ما حكم هذه الوثيقة هي عقلية هيئة التنسيق المحكومة بلاءاتها (العنف والطائفية والتدخل الخارجي) مدعمة بالرؤية المصرية الجديدة والإيرانية والروسية، فهي تبدأ بمساواة بين الجلاّد والشعب من حيث المسؤولية القضية السورية: (دخلت مراحل متصاعدة من التعقيد والعسكرة الناجمة عن سياسات النظام القمعية وقوى التطرف والإرهاب والتدخلات المتعددة الأشكال التي حولت سورية لساحة صراع إقليمي ودولي ملوث بالعنف والمذهبية)، وترى بأن ثورة الشعب السوري قد أصبحت حالة من الصراع الدولي الملوث بالعنف والمذهبية، وتتجاهل تماماً قتل مئات آلاف المدنيين والمنازل التي هدمتها البراميل والصواريخ، وأن الأمر لا يعدو أنه مجرد صراع دولي على الأرض السورية، وإن كان شيء منه صحيح، لكن لابد من الإشارة إلى أن من استجر الدول وأجج وقتل البشر وهو النظام، وبالتالي تحميله المسؤولية تجاه السوريين.

لقد قرأ المجتمعون أو الذين صاغوا الخارطة معاناة الشعب السوري جيداً، ولكنهم لم يفهموا مطالب الشعب،فأدخلوه كثيراً في التفاصيل الواردة في خريطتهم من تشكيلات وهيئات وفترات زمنية وغيرها، لدرجة أنهم أضاعوا ولحد كبير أهداف الشعب والطرق الآمنة والممكنة لخلاص السوريين، فجميع السوريين يتمنون الخلاص ورؤية النهاية لثورة زاد عمرها عن الأربع سنين، وخاصة الخلاص من البراميل والصواريخ وأشكال القتل المتنوعة اليومية عبر الخلاص من رأس النظام ومن ثم الانتقال لشكل وطبيعة المرحلة التالية، وإذا كانت الخارطة ترى أن الحل السياسي هو الوحيد ففيه شيء من الحقيقة وليس كلها ، ولكن السؤال الهام الذي غاب عن الحاضرين هو كيفية إجبار هذا النظام بالذهاب لمفاوضات حقيقية وإجراء تسوية سياسية يتم فيها التنازل عن سلطاته لصالح الشعب حتى التنازل الجزئي ولكن الحقيقي، فما زال حتى اللحظة يتصرف بعنجهية الأباطرة رغم الهزائم التي يتلقاها في أماكن مختلفة من البلاد، بالطبع تعتمد الخارطة على الضغط العربي والإقليمي والدولي لإقناع النظام بالتفاوض، وبالتالي متخلية عن دور للسوريين وفاسحة المجال لتصارع مصالح الدول على بلادنا، وهذا ينسجم تماماً مع عقلية الخارطة وهي عدم الثقة بالسوريين والتعويل على الخارج السلمي (رغم رفضها التدخل الخارجي، ولربما تقصد رفض دعم «الجماعات الإرهابية»).

أما عن الاجراءات الواجب اتخاذها لتهيئة المناخ للتسوية السياسية قبل وأثناء التفاوض فأولها الإعلان عن وقف الصراع المسلح من قبل جميع الأطراف على كافة الأراضي السورية، مع بقاء الجيش النظامي والفصائل المسلحة المؤمنة بالحل السلمي في أماكنها لتجميد الصراع المسلح ومطالبة الدول بوقف الدعم للجماعات المسلحة وإدانة وجود مقاتلين غير سوريين، وهنا يخطر بالبال ما الموقف من استمرار الدعم الإيراني والروسي للجيش النظامي كونه» غير الجماعات المسلحة» واستمراره بقتل الناس بأشكال مختلفة.

أما مسألة المعتقلين فتصورها وكأنها عملية تبادل أسرى، بدلاً من إدانة عمليات الاعتقال والتعذيب والقتل في السجون السورية والتي راح ضحيتها ما يتجاوز عشرات الآلاف من الشباب ناهيك عن عمليات الاغتصاب والإهانات المتعمدة بحقهم.

باختصار كانت الخريطة إيجابية النوايا، سيئة التوجهات فمن مساواتها بين النظام والمعارضة المسلحة نسفت أساس الثورة حيث اعتبرتها صراعاً مسلحاً بين فريقين لتدمير البلد وبالتالي لابد من إدانتهم.

أما عدم الحديث وبشكل واضح عن مصير القتلة وزعيمهم والمطالبة بمحاكمتهم ومحاسبتهم عن دماء السوريين والتغاضي كلياً عن الدور الإيراني والتلميح كثيراً للدور التركي والسعودي كداعمين للتطرف وناشرين للطائفية فليس أكثر من تطابق مع وجهة نظر النظام وداعميه وتصوير المعركة في سورية بين الإرهاب والنظام، وبالتالي نصل لم وصلت إليه الخارطة من قضايا مثل إبعاد البعث عن السلطة، فهو قد ألغى المادة الثامنة منذ زمن، ولكن استمرارية القمع لم تكن متعلقة بها، كما أنه لا توجد مادة ثامنة في البلد الراعي ولكن دور الأمن وعدد المعتقلين يتزايد.

في النهاية لا شك بنوايا المشاركين في إيجاد نهاية لمعاناة السوريين من النظام والتكفيريين، ولكن السياسة ليست نوايا، فهنا ليست الأعمال بالنيات وإنما بالمواقف والمواقع.

الإدارة الذاتية" في مواجهة تحديات الحرب والحصار"

مصطفى عبدي

ترزح المناطق الكردية في سورية التي أعلن حزب الاتحاد الديمقراطي "الإدارة الذاتية" فيها في بداية ٢٠١٤ تحت ظروف قاسية، نتيجة الحرب التي يشنها تنظيم الدولة الإسلامية من جهة، والحصار الخانق الذي تفرضه التشكيلات الإسلامية "المعارضة" بالتعاقب، معطوفاً عليه الدور التركي السلبي والرافض لأي صعود لحزب الإتحاد الديقراطي الكُردي،وهو الموقف الذي ينسجم مع وجهة نظر الائتلاف المعارض الرافض لكيان "الإدارة الذاتية" وتعتبره مشروع للانفصال عن البلاد، في الوقت الذي يشدد المسؤولون الكُرد بأنهم يسعون إلى ترسيخ سورية ديمقراطية موحدة ومتنوعة في آن، ويعملون لتعميم نموذجهم لسورية المستقبل وفق قاعدة الجمهورية الديمقراطية والإدارة الذاتية المجتمعية.

وبعيداً عن المشهد العام المتداول، ثمة تحديات عميقة تعصف بهذه التجربة الناشئة إذا ما قفزنا فوق التحديات الأمنية والعسكرية، سنصطدم بجملة من عقبات اقتصادية بالغة الصعوبة، مضافاً إليها انغلاق الأبواب الدبلوماسية أمام القائمين على الإدارة بمنوال نسبي قياساً لدى الائتلاف الوطني. فمناطق إعلان الإدارة الثلاث / عفرين، كوباني، الجزيرة/ تعاني من ويلات تدهور الحياة الاقتصادية، والتي تقول المصادر المحلية بأنها من أهم المسببات الحيوية في الوقوف وراء ارتفاع معدلات النزوح الجماعي والفردي من "المقاطعات الثلاثة" صوب كردستان العراق وتركيا والعديد من البلدان هذا عدا عن التضييق الأمني، وإصرار حزب الإتحاد الديقراطي الكُردي على إدارة المناطق الكردية بتفرد وإقصاء أي طرف سياسي أو عسكري كردي بل ومحاربته كذلك.

لكن لا يستقيم تفسير إلقاء مسؤولية الهجرة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية بمعزل عن تعقب مسار التطورات العسكرية الجارية على الأرض، حيث تشير الأرقام المحلية أن المناطق الكردية تعتبر أسخن مناطق الحرب في سورية بحوالي ٣٥ نقطة اشتباكات بتسعة محاور يقودها تنظيم الدولة الذي يسعى من خلالها إلى بسط سيطرته على هذه المناطق، حيث يحشد أكبر وأقوى قواته وعتاده كما حدث في كوباني التي تعيش أشرس المعارك منذ سبعة أشهر. فالتنظيم بات يعتبر حربه ضد الكُرد حرباً مقدسة لا يجب أن تنتهي. غيرأن هذا الإصرار الداعشي لا يقف لوحده أمام مصاعب الإدارة الكردية، إذ أن الجار التركي لديه من أوراق إستراتيجية تزيد من مصاعب الكتل السكانية الكردية- السورية.

تركيا شريك في الحصار

تقع المقاطعات الكردية على الشريط الحدودي مع تركيا، مفتقرة إلى معابررسميّة، والمعبران الأقرب هو«جرابلس» و«تل أبيض» وهما واقعان تحت سيطرة تنظيم الدولة. رغم ذلك، تؤكد الإدارة الكردية بأنه "كان بإمكان الحكومة التركيّة التخفيف من آثار الحصار" والاستجابة للنداءات المحلية والدولية، وآخرها نداء من مجلس البرلمان الأوربي الذي دعا إلى فتح ممر إنساني يُسهّل حركة المدنيين والمواد الغذائية والتجارية. إلاّ أنّ الردّ التركي لا يزال غائباً إلى هذه اللحظة، زد على ذلك تشديد حرس الحدود التركي الرقابة على جميع المسالك غيرالرسمية والتي تعتبر نافذة وحيدة أمام الناس، ولا يتوانى الجنود الأتراك في إطلاق النارعلى من يحاول اجتيازالحدود، حيث تم توثيق ٢٧ حالة وفاة منذ العام الفائت. و"كأن تهريب الاحتياجات الحياتية أخطر من إدخال الأسلحة والجهاديين" وفق توصيف جوان شيخو وهو تاجر كردي محلي يحاول تأمين البضاعة من الطرف التركي ونقلها إلى مدينة كوباني، ويستطرد جوان بأنه " ثمة عدة نقاط في ريف تل أبيض وجرابلس تكاد تكون منشرحة مع سورية ويتخذها مسلحوا تنظيم الدولة والمدنيين كنقاط عبور بدون مضايقات، حيث يتم غض النظر عنهم في الغالب، لكن الأمور تزاد سوءاً مع الأكراد تحديداً".

طبيعة الحياة داخل مناطق الإدارة الذاتية ومهما تكن الصورة القاتمة في بعض المناطق الكردية إلاّ أن الحياة داخل عفرين والجزيرة تسير على ما يبدو بطريقة منظّمة، ولا شيء يوحي بتفكيك الشؤون العامة، حيث تحاول الإدارة بمؤسساتها وهيئاتها المتشكلة متابعة شؤون الحياة، وتحاول قدر المستطاع مساعدة الناس في احتياجاتهم اليومية بالحد الأدنى، فثمّة منظمات ومؤسسات تقف على تنظيم الخدمات وتدبير احتياجات عوائل الشهداء، والنازحين وذوي الاحتياجات الخاصة، وتحريك عجلة القطاع التعليمي، مع أهمية إيلاء بوجوب تحسين مستوى الأمن عبر عناصر الشرطة " الاسايش" وإحالة معظم القضايا الشائكة إلى المحاكم المحلية المختصة، لتتفرغ بدورها وحدات حماية الشعب إلى صون حدود

المقاطعة وإن سجلت ووُثقت عدة انتهاكات في مناطق الإدارة الذاتية (لكنّها تُعتبر الأقلّ مقارنةً بمناطق سوريّة أُخرى)، فالتجربة الكردية في مفهوم الإدارة ما تزال حزبية، وستنجح إن ثُقّلت باتفاق كردي-كردي، وأُزيلت الغشاوة بتصحيح المسار ورافق ذلك الانتقال من "الخندق الحزبي والإيديولوجي في الإدارة" إلى "الحكم بعقلية المؤسسات والكفاءات" والانفتاح على الأحزاب السياسية وقبول العمل بتشاركيةٍ.

بخلاف كلتا المقاطعتين، فإنّ حيثيات الحياة في كوباني التي لم تتعافى من تداعيات الحرب تسير في منحى كارثي نظراً للظروف المرافقة للحرب، فعودة المدنيين تجري حالياً عبر بوابة "مرشد بينار" الحدودية مع تركية، بالتزامن مع موجة نزوح معاكسة صوب تركيا مجدداً عقب محاولاتهم البائسة لمقارعة بيئة تكاد تخلو في حدودها الأدنى من مقومات الحياة الأساسية، والأهم من ذلك غياب الأمان والاستقرار السياسي، فحرب تنظيم الدولة الإسلامية تسببت في تحول المدينة إلى حطام، كما نالت قرى الريف هي الأخرى نصيبها من الدمار والألغام التي مازالت تحصد يومياً المزيد من المدنيين حتى بعد انتهاء الحرب، فلا تقتصر دائرة مخاطر الألغام والقنابل على البيوت فقط، بل تشمل الأراضي الزراعية، وهذا ما يثير مخاوف لدى الأهالي الذين يعتمدون على الزراعة كمصدر أساسي في تأمين قوت حياتهم. وسبق أن أشار تقرير صدر من الأمم المتحدة إلى أن هناك قرابة ٣٠٠٠ منزلاً مدمّراً في المدينة بشكل كلّي وأكثر من ٥٠٠٠ جزئياً، إضافة إلى أن عشرات قرى في محيط كوباني سُويت بالأرض.وأفاد التقرير أن عشرات القرى الأخرى مدمرة جزئياً، راصداً نسبة تدمير المدينة بنحو ٧٠ في المئة، مع تدمير المشافي والبنية التحتية وخطوط الري والصرف الصحي والكهرباء في مدينة كانت تصل تعداد قاطنيها قبل الحرب إلى نصف مليون نسمة، ليتراجع في الوقت الحالي إلى قرابة ستين ألفاً.

وأمام هذه التحديات يُشكل غلاء المعيشة، والأسعار المرتفعة ونَدْرة المواد واليد العاملة والمواصلات، فضلاً عن التأثيرات النفسية العميقة، وغياب الاستقرار، وحالات التشتت التي أصابت الأهالي الذين رغم كل الظروف القاسية تجدهم أكثر من سعداء حين دخولهم إلى كوباني من بوابة مرشد بينار بشعور مليء بالفخر والغبطة بمدينة سورية وقفت في وجه الإرهاب، وأردته، وسجلت بأنها أول مدينة رفضت احتضان تنظيم الدولة.

يقول صالح حبش وهو أحد العائدين مؤخراً من تركيا إلى المدينة المدمرة للتو:" رغم كل شيء، فإن الوضع في كوباني ليس مأساوياً أبداً، بل بخلاف ذلك تماماً، اليوم شعرت براحة لم أشعر بها منذ ستة أشهر". هذه المشاعر هي ذات المشاعر التي ينقلها الكثير من العائدين بعد رحلة هروب من الموت والقصف والتشرد إلى ساحات وشوارع مدينة سروج التركية والمخيمات الموزعة على الشريط الحدودي، وتلك الحشود المتجمهرة لشهور طويلة وسط المنطقة المحرمة المزروعة بحقل الألغام. منذ تحرير كوباني في يناير ٢٠١٥ والناس تعود بوتيرة متزايدة لتفقّد منازلهم وقراهم فيجدونها خراباً، أو تحولت لمزارع ألغام ومتفجرات زرعها التنظيم قبل أن ينسحب، عدا عن بقايا القذائف في الشوارع التي حصدت الكثير من الأرواح خلال الشهرين الأخيرين فقط. فلا توجد إحصائيات دقيقة عن عدد المدنيين الذي تضرروا بمخلفات الحرب والألغام، لكن حسب المتابعات الميدانية، فإن ٤٥ شخصاً قُتلوا بالألغام، غالبيتهم من أطفال ونساء، كما أن عدد حالات الإعاقة وصل إلى ٨٠ حالة، شملت بترَ أطرافٍ وعاهات في الجسد والوجه.

لتغدو رحلة العودة إلى الديار محفوفة بالخطورة والمجازفة إذا لم يسعفهم المجتمع الدولي والمنظمات المختصة، خاصةً وأنّ الناس بدأو يستشعرون اليأس من المجتمع الدولي من جهة خذلانهم حينما حوّلوا مدينتهم إلى أنقاض، بدون تقديم حلول عاجلة لمشاكلهم بغرض تجاوز الآثار المادية والنفسية، علاوة على ضرورة تنظيف المدينة من الألغام، وتوفير برنامج "استقبال للنازحين" أو"إيوائهم مؤقتاً " بشكل لائق بعد معاناة استمرت ستة أشهر.

وقد لخصت لجنة محلية مُشكّلة من رحم الإدارة الذاتية في كوباني بضعة من مطالب عاجلة في سبيل إنعاش المدينة مجدداً. منها على سبيل المثال، العمل على إنشاء مخيم برعاية دولية لاستقبال العائلات التي تهدمت منازلها وتأمين العائدين مؤقتاً، إضافةً إلى إعادة بناء مشفى مُجهّز بالمعدات والأدوية اللازمة، مع إيجاد حلول لمسألة مخلفات المعارك والمفخخات والجثث المنتشرة والمتفسخة في الشوارع وتحت الأنقاض، إلى جانب توفير المواد الداخلة في إنتاج الفرن الآلي الوحيد في كوباني، وتأمين الوقود والغاز، والمساعدة في تنظيم وإعادة بناء البنية التحتية، مع العمل على تأهيل القطاع الزراعي عبر توفير الآلات الزراعية والبذار وإيجاد حل للثروة الحيوانية المنقرضة نتيجة الحرب.

بكلّ حالٍ لا يُبدي الكُرد في سورية قلقاً بخصوص المستقبل. فهم يؤمنون بقدرتهم على كسب التّحديات إذا ما حُلّت الأزمة السوريّة. يثق معظمهم بقدرتهم على "لعب السياسة". وهم لا يوافقون على اتهامهم بوجود "نزعة انفصالية" لديهم. لكنهم يجدون أن حصولهم على "الإدارة الذّاتيّة" حقّ مشروع، كما يقول شرفان دوريش وهو ناطق إعلامي يرافق كتيبة شمش الشمال «نحن سوريون، ونحبّ هذه البلاد ولن نتخلى عنها. ولكن لنا الحق أيضا في حماية مدننا وإدارة شؤوننا ذاتيّاً».

"حيثيات الحياة في كوباني لم تتعافى من تداعيات الحرب تسير في منحى كارثي نظراً للظروف المرافقة للحرب، فعودة المدنيين تجري حالياً عبر بوابة "مرشد بينار" الحدودية مع تركية، بالتزامن مع موجة نزوح معاكسة صوب تركيا مجدداً عقب محاولاتهم البائسة لمقارعة بيئة تكاد تخلو في حدودها الأدنى من مقومات الحياة الأساسية، والأهم من ذلك غياب الأمان والاستقرار السياسي"

أطفال من هذا الزمان

رهادة عبدوش

يراهم العابر فوق الجسور، تحتها، على أدراجها، خلف السيارات والشاحنات يتسلّقون السيزوكي والبيك آب، يعبرون مع ظلّهم إلى أمكنةٍ يلتقون بها بما يجلب لهم فتات المال والطعام واللباس، يحدّقون بالمارّين بأيديهم التي تحمل تارةً علب محارم والبسكوت، وتارةً أُخرى السمسمية وغزل البنات، وأحياناً كثيرة بأيديهم الفارغة إلاّ من كلمات التوسّل والدعاء التي تدرّبوا كيف يلقونها بحسب القادم إليهم.

يحتار ذلك العابر كيف يسوّي بين ما يراه وما يعتقده وما يعلمه، فلا يجد مفرّاً من بعض ليرات يرميها لأحد الأطفال، أو يغضّ طرفه فلا يرى بؤسهم ولا يسمع توسلاتهم ويهرب علّه يصدّق أن كل ما يحدث أمامه إنما مشاهد تمثيلية أبطالها أطفال ومخرجها أهاليهم أو عصابات تنتظر آخر النهار ما يأتيها منهم.

إنهم الأطفال في سورية الذين يعيشون في كنف المدن التي تحميها الحكومة بكلّ وزاراتها وهيئاتها والمنظمات غير الحكومية التي تتعاون معها (يونيسف، صندوق الأمم المتحدة للسكان، منظمة الهجرة الدولية، ...الخ).

أطفالٌ من محافظات ومناطق مختلفة من سورية، منهم من امتهن هذا العمل قبل الحرب ولم يكن لها سوى تأثير مشجّع للاستمرارية، ومنهم من اضطرّتهم الظروف للعمل في الشارع بعدما فقدوا بيوتهم، آبائهم، أمهاتهم، مدارسهم، وما يعيلهم.

كثيرةٌ هي الأسباب التي دفعت بالأطفال لأن يكونوا أولاد شوارع، وقليلةٌ جداً بل تكاد معدومة الإحصاءات والدراسات التي ترصد مشاكل هؤلاء الأطفال وأعدادهم، وبالحقيقة بحثت حتى في بيانات اليونيسف وكل المنظمات المتخصصة بالسكان في سورية وخارجها لأحصل على رقم أو تقرير خاص بهؤلاء الأطفال، لكن دون جدوى فكلها تعتمد على المشاهدة والرأي، لكن لا توجد أرقام دقيقة لهذه الأعوام الثلاثة الأخيرة ترصد واقع الأطفال أوتدرس إمكانيات الحل ضمن الظروف الموجودة والقوانين المتبعة، تلك القوانين التي تقف عائقاً لكل عمل من شأنه دعم هؤلاء الأطفال أو تمكينهم.

من تلك القوانين قانون الجمعيات الذي ينتظر العاملون في الحقل المدني تعديله منذ أكثر من عشر سنوات عندما كان يجتمع الناشطون/ات من أجل تقديم تعديل يساعد على ترخيص جمعيات تعمل في سورية بشكل سلس ويبعد الإشراف المباشر لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل على كل اجتماع وفعل تقوم به أي جمعية، وشاركت الحكومة حينها بمثل هذه المحاولات. والآن ومنذ سنوات أيضاً تتغنى وزارة الشؤون الاجتماعية بالقانون القادم الذي سيسيّر عمل الجمعيات، لكن كل ما يحدث إلى الآن انتظار وترقّب، أما الجمعيات التي تحاول الترخيص للعمل وتنفيذ أي مشروع اجتماعي فهي تنتظر دورها بالترخيص ضمن شروط تعجيزية، ومنها جمعيات تهدف إلى حماية الأطفال من العنف، وتقدم بالتالي مشاريع تتعلّق بأطفال الشارع ورصد واقع الأطفال من خلال استبيانات وفرق تتوزع في مختلف الأنحاء في سورية التي تحت يد النظام، لكن كل هذا غير ممكن دون ترخيص من الوزارة التي تتمسّك بقانون جمال عبد الناصر الذي نزع القانون السوري عند مجيئة ووضع مكانه هذه التحفة المقيتة من قانون لا يمكنه أن يدعم أي توجّه مدني في سورية.

أما القوانين الأخرى المعرقلة لإنقاذ الأطفال المشردين أو أطفال الشوارع - ومن ضمنهم العاملين- فهي تتعلق بقانون العقوبات الذي يمنع أن يعيش الطفل خارج أسرته فلم يُقرّ بعد قانون خاص للأطفال الذين يعيشون ضمن أسرة لا تليق بالأطفال، من مثل الأسر التي تستغل الطفل في أعمال الدعارة أو العمل في الشارع أوتتركه عرضةً للتشرد، وتُبْقي على حق الولاية للأهل رغم كل الاختراقات للقوانين وحقوق الإنسان التي قد يستخدمها الأهل المستغلين لأطفالهم.

وهنا نعود إلى اتفاقية حقوق الطفل التي صادقت عليها سورية عام ١٩٩٣ التي تطالب بالرعاية البديلة للأطفال الذين يعيشون ضمن ظروف سيئة مع ذويهم وبسببهم، لكن تبقى القوانين الداخلية التي لم تتعدل لتتوافق مع الاتفاقية التي هي بالحقيقة بمرتبة أعلى من القوانين حيث تأتي بالتراتبية بعد الدستور ومن ثم للقوانين الداخلية لكن للأسف التعديلات القانونية تحتاج المزيد من الاجتماعات والمؤتمرات.

وهنا لن يسع المجال للحديث عن مجمل القوانين التي تعيق العمل المدني والعمل مع الأطفال فالتغيير يجب أن يكون جذرياً ومتكاملاً، وبالوقت نفسه لا بدّ من ذكر بعض القوانين الجيدة من مثل قانون الاتجار بالبشر، وقانون الأحداث، لكنهما يحتاجان للدعم والتطبيق الحقيقي على أرض الواقع المؤلم الذي يعيش فيه أطفال يمكن أن يصنّفوا أنهم يعيشون في المنطقة الأخطر في العالم.

ويبقى أطفالنا في الطرقات عرضةً لكافة أنواع الاستغلال الجسدي والجنسي والنفسي، وعرضةً للإجرام حيث تكثر حالات الخطف والتجارة بالأعضاء، وأيضاً عرضةً لتجار المخدرات والحشيشة حيث يتم استغلال الأطفال في أعمال البغاء وكذلك المواد المخدّرة، رغم البروتوكول الإضافي على اتفاقية حقوق الطفل والذي صادقت عليه سورية - الأشطر عالمياً بالمصادقة على الاتفاقيات الدولية والأضعف في التطبيق-، وهنا لا تملك بعض الفعاليات المسموحة في سورية إلاّ العمل في إطار تنظيم احتفاليات وفعاليات يرقص بها الأطفال ويوزّع لهم بعض الهدايا والحلويات ليعودوا بعد مغادرة الكاميرات إلى أعمالهم في الطرقات وأمام المارة الذين يحتارون كيف يتعاملوا مع هذه الظاهرة المنتشرة فهل يشجعونهم على العمل في الشارع أو التسوّل بإعطائهم بعض المال، أم يغضون الطرف أمام توسلاتهم في بلاد لا تعرف من الطفولة سوى المتاجرة بقصصهم لكسب دعم أكبر في الاغاثة والتمويل.

هل للسوريات دور مرتقب في عملية التحوّل نحو الديموقراطية

غيداء العودات

منذ اليوم الأول للحراك الشعبي كانت المرأة جنباً الى جنب مع الرجل في تنظيم التظاهرات والحشد لها والمشاركة بها إذ رأت فيها الفرصة لتغيير الوضع القائم بشكل عام وتغيير وضعها بشكل خاص، وكانت فرصة تفويتها يعني بقاؤها لعقود طويلة جديدة تناضل لتغيير وضعها والحصول على مواطنتها كاملة دون نقصان، لكن الاعتقالات والانتهاكات التي مورست بحقها جعلت تضييق المجتمع عليها يزداد من باب الحرص على سلامتها.

المجتمع حيث الأعراف والعادات يحتل بها الشرف والسمعة وفق مفهومه الضيق مرتبة أولى شكلت هاجساً لديه مما ضيّق على المرأة السورية نطاق مشاركتها، وتطور هذا التقليص بعد عسكرة الثورة، فكانت نقطة تحوّل أضعفت دورها ومساحة مشاركتها لتنحصربالتمريض والطبابة، ومن ثمّ بالإغاثة نتيجة التهجير والنزوح الذي ازداد وبات يُشكّل عبئاً لابدّ للمرأة من المشاركة بتحمّله.

بدت الثورة فرصة مثالية للمرأة لتغييروضعها جذرياً، لكن انشغالها بأعمال التمريض والإغاثة شكّل قيداً لها ولمشاركتها فيما حلمت به من عملية التحول الديموقراطي، وكجزء من المجتمع بدا أثر سنوات التهميش لدور السوريين في العمل السياسي، وحالة الرهاب التي تركها حكم الاستبداد نحو العمل السياسي ظهر فيما بعد جلياً نقص امكانياتها الانخراط بالحركة السياسية كدعامة للتغيير وحاجتها إلى جهد كبير لإعادة تمكينها سياسياً وقيادياً لتأخذ دورها في عملية التحوّل، كما ظهر هذا في كل فئات المجتمع.

إن ضرورة تواجد المرأة الفعّال في عملية التحول الديموقراطي ينبع من ضرورة طرح قضاياها على مائدة صنع الدستور لتغيير كل ما يخصها فيه بما يتناسب مع نيلها المواطنة المتساوية التامة ومساهمتها في كل التغييرات اللتي ستطرأ عليه قانونياً واجتماعياً واقتصادياً، والحرص على عدم تهميشها. فتراوح مكانها لعقود طويلة قادمة.

وبإلقاء نظرة شاملة على الوضع القائم ومجرياته لن نجد صعوبة في ملاحظة إقصاءها من عملية التغييروإعادتها عقوداً للخلف بدلاً من السيرقدماً نحوتطويروضعها مما يتطلب عناية تامة بدراسة واقعها الحالي في ظل الهجمة المظلمة على المجتمع، والانتباه لضرورة العمل على إظهار حقيقة ما يجري لها وما تعاني منه وهي صامتة من الخوف والقهر، وعدم إغفال هذا بحجة الوضع الراهن والأولويات والضرورات، ولا بد من رعاية مجموعات نسوية في كل المجتمعات المحلية على اختلافها ومستوياتها لتتمكن من رفع صوتها ومقاومة التهميش وسلب حقوقها على قلّتها واللتي كانت تملكها وتمكينها من مفاهيم الدولة المدنية والعلمانية وتوعيتها لأهمية فصل الدين عن الدولة كضرورة تجنبها إمكانية اعتماد الدستورعلى الشرائع الدينية التي تتعامل مع المرأة كمواطن من مرتبة ثانية، وأن هذا الفصل يعني ضمان عدم تعرّضها لهذا التمييز وخسارة جزء كبير من حقوق المواطنة إن لم تعتمد الدولة القوانين القائمة على عدم التمييز على أساس اللون أو الجنس أو العرق أو الدين .إن ثورة قامت للحريّة الانسان باتت خطراً داهماً لسلب الحريّات الضئيلة التي كانت متاحة للمرأة نتيجة تسلل قوى ذات أفكار دينية واجتماعية متشددة ومغلقة ومستقدمة في أحيان كثيرة حاملة نظرة وصورة نمطية تبنتها لقرون عديدة ماضية مقابل ضعف العمل المدني بمنظماته المدنية والنسوية القديم -المهمّش منها سابقاً مما لم يُعطه الخبرة والمؤهلات الكافية لقيادة المجتمع- والوليد الهشّ منها، ونساء مُستضعفات في المجتمع لا يعين قضاياهن.

لا زال الحراك النسوي ضعيفاً يحبو ببطء رغم كل ما قدمته المرأة أماً وابنة وشريكة في الوطن، وما تتحمله من معاناة، وما تقدمه أماً وابنة وشريكة في الوطن. هذا الضعف الذي لم تُغيّر به شيئاً منظمات المجتمع المدني الدولي بمشاريعها الضئيلة الأشبه بمشاريع استثمارية لا تهدف للتغيير الحقيقي المستدام بقدر هدفها الآني الضعيف التأثير حقيقة على المجتمع السوري والمجدي لها آنياً على الصعيد الاستثماري، رغم وضوح حاجة المرأة السورية للتمكين والدعم والإعداد بانتظار مساهمتها الفاعلة في التحول القادم مهما طال انتظاره.

بات من الضروري التركيز في المرحلة الحالية على دور المرأة المنتظر في الضغط نحو الحل السياسي السلمي كخطوة لتأهيل الوضع العام لصناعة الدولة وفق المفاهيم اللتي تحقق المواطنة بشكل عام والمواطنة المتساوية لها بشكل خاص لأن من أولويات بناء دولة قوية ومجتمع متماسك ومتوازن تفعيل مواطنة كل أفراده بدون استثناءات موضوعة ولا تمييزمتوارث ولن يكون هذا مالم تشارك المرأة بشكل أساسي في الحياة العامة الاجتماعية والسياسية وما لم تجد الدعم الكافي لهذه المشاركة رغم كل ما ستواجهه ويواجهه متبنّي هذا الفكر من تحديات.

المرأة السورية ما بين العنف الممارس عليها ورؤيتها للسلام

أمل نصر

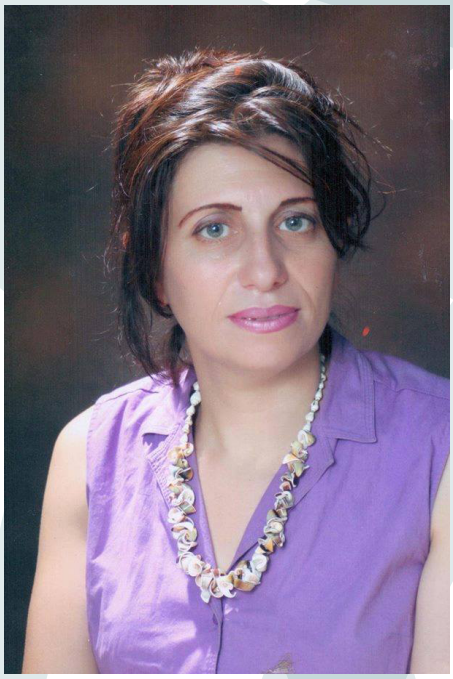

مع ظهور ما يُسمّى بالربيع العربي أواخر عام ٢٠١٠، وامتداد رقعته الجغرافية على اختلاف أشكاله ونتائجه ما بين تونس والبحرين ومصروواليمن ليصل سورية شعباً وأرضاًفي آذار ٢٠١١ مشكلاً ربيعاً سورياً حقيقياً للشعب عامّة وللمرأة السورية خاصة عبر مساهمتها الحقيقية والفاعلة في الاحتجاج السّلمي في كافة المناطق السورية ومن كافة أنتماءاتها الفكرية والمجتمعية والسياسية، حيث ظهرت ريادتها بقيادة المظاهرات النسائية وخاصة في الريف، وأثبتت من خلال ذلك أن مشاركتها كانت تليق بمستوى طموحاتها بما رفعته من شعارات دون أن تُميّز خاصيتها فيها، بهدف التأكيد أن القضية هي قضية حرمان متساوٍ لجميع أفراد الوطن من حقهم في حريتهم بالتعبير والكرامة والمواطنة، مشاركة فاعلة جنباً إلى جنب مع كل السوريين على مختلف أطيافهم وانتماءاتهم الفكرية والمجتمعية والسياسية وحتى الاقتصادية، وتحويل تلك الاحتجاجات من صرخة غضب إلى ثورة شعب ضد الاستبداد والدكتاتورية.

مع بدء تغلغل سرطان المال السياسي في جسد الثورة بعد مرور أكثر من عام عليها، تحولت من عنف الاستبداد على شعب إلى صراع مصالح لأطراف وقوى مدعومة من أطراف أخرى محلية وعربية وإقليمية، وبدأت مرحلة جديدة اختفت فيها معالم الاحتجاج السلمي لصالح عسكرة الثورة وتحولت بمنتصف عام ٢٠١٢ إلى حالة من العنف المتبادل بين الأطراف الذي أدى بعد عامين من الثورة- عندما تزاوجت مع الدين السياسي- لتحول قضية الشعب السوري إلى قضية عصابة من المتطرفين العنفيين تحت مسميات متعددة الدينية منها مؤخراً والسياسية سابقاً، واستطاع النظام أن يثبت للعالم إعلامياً أنه صاحب مشروع حقيقي بمناهضة الثورة، فهو من ادعى أنها بدأت سلفية وليست سلمية وهو من يكافح الإرهاب. وكان المنزلق الأكبر لتلك القضية الترويج والتسويق الإعلامي لها من كل الأطراف المتنازعة عسكرياً وعنفياً في الساحة السورية محلية كانت أم غير ذلك، ولم يدرك المجتمع الدولي والإقليمي والعربي أنها قضية متطرفين من أشكال عدة لأطراف عدة، الثمن الوحيد لعنف تطرفهم هو ما دفعه المدنيون من الشعب السوري من دماره ودماءه وتهجيره واعتقاله وتعذيبه وتشويهه جسدياً ونفسياً لصالح مصالح المتصارعين المشتركة في المنطقة وفي سورية خاصة، على حساب أساس القضية السورية التي ناهض الشعب فيها الدكتاتورية والاستبداد.

وبجردة حساب أولي لما قدمه المجتمع الدولي و الأمم المتحدة ومجلس الأمن من تضامن مع قضية هذا الشعب، وما وصلت إليه المرأة السورية من نير عنف تلك الأطراف المتصارعة، الذي حصدت نتائجه المرأة حرمانا لها ولأسرتها العيش الكريم والأمن واستبدل به الذل والقتل والنزوح والتهجيروالجوء والاغتصاب والبيع كسلعة والتزويج المبكر للقاصرات (وخاصة في المخيمات بدول الجواروبلاد اللجوء العربية، وأكثرما ظهرمن عنف ممارس ضدها ما حصل لها في المناطق التي سميت بالمحررة) مناطق تحررت من النظام واغتصبت من تنظيم الدولة الإسلامية بدعم محلي وعربي ودولي.

وفي مخاض الوضع القائم للنزاعات المسلحة وللعنف الدائر بين المتصارعين الذي لا يؤدي إلى إبطاء عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل تهدم ما أحرز فيها من تقدم سابق وتتعاظم المخاطر الاقتصادية إلى تهديم البنى التحتية إضافة للبنى الفوقية وانتشار البطالة والفقر والجوع، والتي تجني المرأة فيها أقسى مراحل حياتها كأم ومعيل ومنتج أينما كانت من رقعة سورية جغرافياً ، ومهما كان انتمائها الفكري والديني والقومي، ومع تسلل الفئات المتطرفة دينياً وفكرياً وعنفياً إلى ميدانها و رزوخها تحت وطأتهم وازدياد العنف عليها في دائرة المتصارعين والمتنازعين بالسلاح مما أدى إلى فقدانها أبنائها وأزواجها وآبائها، أما بسبب انخراطهن بحمل السلاح أو الموت أو الاعتقال أو الإعاقة، وزاد عبئها عندما أصبحت هي المعتقلة حيث دفعت الأثمان مرات ومرات عنها وعن عائلتها. إضافة إلى انخراط قسم من النساء بالعمل العنفي المسلح نتيجة الحاجة المادية أو النفسية العنفية إن كان مع النظام بانضمامها إلى الجيش الشعبي والشبيحة بأجر شهري، أو كان مع المعارضة المسلحة كقناصات، أو خطف جنود، أو تهريب سلاح أو طعام أو.....كل ذلك مقابل راتب شهري لتقات به وأسرتها من جور الفقر والظلم، أو لجوء الأخريات منهن إلى نظم كسب العيش غيرالمشروعة كالعمل في الدعارة أو التهريب بمختلف أشكاله وألوانه أو الانتقال للعيش عند المتطرفين الإسلاميين (تنظيم الدولة الإسلامية) أيضاً بأجر شهري، أو الزواج بأمير ديني الخ .....

كل ذلك أدى إلى تدهور أوضاع النساء على كافة الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، التي أفقدت المرأة شعورها بالانتماء لوطن لا يستطيع حمايتها ويفتقر إلى الأمن والاستقرار والسلام لها ولأسرتها.

وتكرس ذلك بتجاهل المجتمع الدولي والعربي

قضيتها خاصة وقضية شعبها عامة على المستويين الخاص والعام وتكريس الخطاب السياسي الإعلامي الذي لم يكن في صالحها، خاصةً عندما اختصرت قضيتها بقضية اغتصابها إن كان من طرف النظام أو من الأطراف الأخرى، متجاهلين اغتصاب أرضها وأمنها ومستقبلها، ووقف الجميع متفرجاً وخاصة المجتمعات العربية والإسلامية، دون أدنى رادع لإزالة العقبات السياسية والمجتمعية والأمنية التي تعوق سلامها وأمنها واستقرارها لها ولشعبها، ودعم انعكاس السياسات العامة لهم على مصالحها المستقبلية، ترافق مع تراجع في وصولها إلى مواقع صنع القرارالسياسي مع كل الأطراف وتولّي المناصب القيادية والارتقاء بأدائها المجتمعي. وتجلّى ذلك تاريخياً بالابتعاد عن تمكين كافة أطياف المجتمع والمرأة خاصة من حقوقهن المجتمعية، بخصوص الشرعة الدولية والقانونية لحقوق الإنسان وبأهمية ذلك بانعكاسه على المجتمع كافة تحرراً ونمو الواقع يمنع الوصول إلى الحالة التي وصلنا إليها اليوم.

وحيث أن صرخة المرأة السورية لم تستطع أن تصل إعلامياً بشكل جاد وفاعل لخلق التواصل والتضامن بين النساء العربيات، وبينهن وبين البرلمانيات العربيات والأوربيات، لدعم قضيتها عربياً ودولياً لتكون قوة ضاغطة وفاعلة لضمان التكاتف والتكاشف بأوضاعهن من جهة، وللضغط على شعوبهن وحكوماتهن لدعم حراك المرأة السورية السلمي في حقها بوقف العنف وبناء بلدها سلمياً.

وبالعودة إلى ثورات المجتمعات انطلاقا من أن النساء وأُسرهن هن هدف لكل أشكال العنف الواسع النطاق في مرحلة النزاع المسلح، فيجب تعزيز حمايتهن من خلال التأكيد على أهمية الالتزام بتنفيذ قرارات مجلس الأمن الستة لحفظ أمن وسلام المرأة (القرار ١٣٢٥الصادر عام ٢٠٠٠ وصولاً إلى القرار٢١٢٢ الصادر عام ٢٠١٢) يتعلق فحوى القرار بحماية النساء وأُسرهن بالحد من العنف، واحترام حق مشاركة النساء في إدارة حالات النزاع وصناعة السلام وإعادة الاعمار.لكي يكون ضرورة من ضرورات الواقع للمرأة السورية للتعرف عليه والانخراط فيه كمشارك وفاعل وضامن للعملية السلمية على الساحة السياسية والمجتمعية.

الشفافية الحكومية وحرية المعلومات

الدكتور علي حمدان- دكتوراه في القانون الدولي

مقدمة

من الضروري أن يطلع المواطن على معلومات الحكومة في سبيل تطوير المجتمع المدني والديمقراطي وصونه، فالمعلومات تسهل المعرفة والحوار لدى العموم وتوفر لهم مناعة حصينة في وجه أشكال التعسف وسوء الإدارة، ناهيك عن أن الانفتاح والشفافية في عملية صنع القرار يساعدان في الحفاظ على ثقة المواطن في أعمال الحكومة.

بعض التجارب

أولاً. على المستوى الدولي

أُقرّحق الوصول إلى المعلومات في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ والعهد الدولي .الخاص بالحقوق السياسية والمدنية عام ١٩٦٦ كذلك أقر المجتمع الدولي بأهمية الوصول إلى المعلومات لدواع أخرى، كاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد عام ٢٠٠٣ التي تدعو الحكومات إلى السماح للمواطنين بالوصول إلى المعلومات .على أنها إحدى الوسائل الآيلة إلى مكافحة الفساد كذلك دعت مبادئ ري ودي جانيرو (قمة الأرض) عام ١٩٩٢ إلى حرية الوصول إلى معلومات بيئية موجودة في حوزة السلطات العامة، تعزيزا لمشاركة المواطنين في .صنع القرارات المتعلقة بالشؤون البيئية أيضاً وقعت أربعون دولة اتفاقية لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لأوربا حول الوصول .(إلى المعلومات عام ١٩٩٧ (اتفاقية آروس وقد أقرت كل من منظمة الدول الأمريكية والمجلس الأوربي وأمانة الكومنولث، حق الأفراد بالحصول على المعلومات الموجودة لدى الحكومات.

ثانياً. على المستوى الوطني

اعتبرت كثير من دساتير العالم حرية الوصول إلى المعلومات في مصاف حقوق .الانسان أو الحقوق الأساسية للإنسان وقد قامت خمسون دولة بإقرار قوانين شاملة تتعلق بحرية المعلومات أو الوصول إلى المعلومات. وقد انطلقت هذه الحملة من دول أمريكا الشمالية وأوربا ثم مالبثت أن توسعت لتشمل كل من الباكستان .والهند وتايلاند وغيرها من دول العالم

منافع حرية المعلومات

أعلن البنك الدولي في دراسة أجراها عام ٢٠٠٣ أن الحكومات التي تتمتع بشفافية أكبر تحكم بشكل أفضل لجهة مجموعة من مؤشرات الحكم مثل: فعالية الأداء الحكومي، والأعباء التنظيمية، والفساد، وحق التعبير، والمساءلة، وحكم القانون، والكفاءة الإدارية...الخ. وبشكل عام يمكن القول بأن حرية المعلومات تدر على المواطنين والحكومات عدة منافع أهمها:

١. تحسن المشاركة في العملية الديمقراطية وفهم هذه العملية، لأن المواطن أصبح يعرف أسباب القرارات المتخذة وسيقوم بدعمها.

٢. تراجع إمكانية صنع القرارات الحكومية انطلاقاً من بواعث مشكوك فيها، وبالتالي ستستند القرارات التي تنشر على العموم إلى أسباب موضوعية وتعزز الثقة بالحكومة.

٣. تضاؤل الفرص المتاحة أمام الممارسات المشوبة بالفساد لأنها تقتضي توفيق الأسباب الداعية إلى تلزيم العقود وسواها من العمليات المالية وتبريرها.

٤. تزايد إمكانية التصدي لأشكال سوء استخدام السلطة على يد قادة سابقين لمعرفة مصير المفقودين والضحايا في الفترات السابقة التي انتهكت فيها حقوق الإنسان.

٥. تحسين فعالية الحكومة، إذ تستطيع حرية المعلومات أن تُحسّن تدفق المعلومات داخل الحكومات، في حين تحدّ شدة السرية من قدرات الإدارات الحكومية على تشارك المعلومات مؤثرة بالتالي على فعاليتها.

٦. تدني الحاجة إلى قوانين تنظيمية وتحسين السلامة العامة: تجمع الحكومات كماً هائلاً من المعلومات المرتبطة بنشاطات القطاع الخاص، ويمكن استعمال هذه المعلومات لدى الكشف عنها كبديل لإقرار بعض القوانين التنظيمية، وهذا يخول منظمات المجتمع المدني وكذلك المواطنين مراقبة الشركات الخاصة عن طريق الإعلان عن بعض الممارسات المضرة بالمجتمع. فمثلاً إن نشر المعلومات المتعلقة بالمواد الملوثة التي تطلقها الصناعات يساهم بإعلام المجتمعات المحلية بالمخاطر المحتملة.

٧. زيادة الشفافية: من شأن إقرار القوانين المتعلقة بحرية المعلومات أن يفضي عموماً إلى المزيد من الانفتاح في النشاطات الحكومية، فتدرك الحكومات أن نشر القسم الأوفر من المعلومات لايضير بوظائفها أو بموقعها السياسي، وبالتالي فهي تضع المعلومات أكثر فأكثر في متناول الجميع.

٨. تحسين إدارة السجلات الحكومية وزيادة دقتها: تؤدي القوانين المتعلقة بحرية المعلومات في كثير من البلدان إلى تحسين أساليب حفظ السجلات تحسيناً ملحوظاً. ويكفل حق الاطلاع على الملفات الحكومية دقة السجلات.

من يستعمل حرية المعلومات؟

أولاً. الأفراد: هم الفئة الكبيرة المستفيدة من قوانين حرية المعلومات للحصول على معلومات تهمهم، مثل رفض بعضهم في المسابقات أو الحرمان من القروض أو الرسوب والنجاح في المدارس والجامعات.

ثانياً. المجتمع المدني: فالمجموعات المعنية بشؤون البيئة تطلب معلومات عن المخاطر البيئية، ومجموعات حماية المستهلك تطلب معلومات حول سجلات المنتجات والنظافة...الخ.

ثالثاً. وسائل الإعلام: إذ يحتاج الصحافيون لمعلومات كافية لكتابة تقاريرهم.

رابعاً. الشركات: يحق للشركات الوصول إلى مجموعة واسعة من المعلومات التي يمكن استعمالها لأغراض تجارية، وهذه المعلومات تشمل الأبحاث العلمية التي أجرتها هيئات حكومية ويمكن استعمالها في الصناعة والتسويق...الخ.

خامساً. الأحزاب: من حق الأحزاب أن تصل إلى المعلومات الحكومية لتمارس دورها في العملية السياسية.

تطبيق قوانين حرية المعلومات:

أولاً. الإطار الزمني للتطبيق: عادة يتطلب تطبيق قوانين حرية المعلومات بعض الوقت لإتاحة الفرصة للإجراءات الإدارية والتدريب على ممارستها، وهذه الفترة تتراوح بين ستة أشهر وثمانية عشر شهراً. وهناك بعض الدول تطبق هذه القوانين على مراحل.

ثانياً. هيئة تنسيق مركزية: قادرة على وضع استراتيجية لتنسيق الجهود، وتكون هذه الهيئة مدعومة من أعلى المستويات. وتتمثل وظائف هذه الهيئة بالتوجيه والتنسيق والتدريب والإشراف ونسج الشبكات.

ثالثاً. التطبيق داخل الإدارات: ينبغي على كل هيئة حكومية أن تبادر أولاً إلى تعيين منسق مهمته السهر على تطبيق القانون داخل إدارتها، ويجب أن يتمتع هذا الموظف بصلاحيات واسعة.

وأخيراً نستطيع القول ما أحوجنا إلى شيء من الشفافية في هذه المرحلة الحساسة من ثورتنا المباركة.

أطفال أم قنابل موقوتة

تيم رمضان – الرقة تذبح بصمت

ليس تجنيد الأطفال مشروعاً جديداً لتنظيم الدولة ، وان تغير اسمه فهو امتداد لمخطط «طيور الجنة» الذي انتشر في العراق عام ٢٠٠٨، في أواخر فترة حكم أبو عمر البغدادي لتنظيم دولة العراق الإسلامية، حيث استهدف مجموعات الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٩ و١٤ عاما ويتم استخدامهم من قبل التنظيم بشتى الأعمال، خصوصا جمع المعلومات ونقلها ونقل الأموال والذخائر والأسلحة وأعمال المراقبة، وصولا إلى الهجمات الانتحارية. وتحول الاسم الجديد إلى «أشبال الخلافة» ويتركز البحث عنهم بين اليتامى والفقراء ليتم إعدادهم كقادة التنظيم مستقبلاً أو إغناء مخزون التنظيم بعدد أكبر من الانتحاريين المتطوعين.

ويعتبر الأطفال الثروة الحقيقية التي سيطر عليها التنظيم الى جانب الحقول النفطية والمساحات الجغرافية الشاسعة والتي ساعدته بالتمدد وتركيز دعائم دولته في المنطقة، لأنه سخر الأطفال لخدمته وإكثار عديده ، مستغلاً حبهم لارتداء البزّة العسكرية واعجابهم بوظيفة رجل الأمن الذي يحمي البلاد ، والرغبة بتجربة هذا الدور بنفسهم.

يروي أحد الآباء لمراسل الرقة تذبح بصمت من الذين انضم ولده ذو الرابعة عشر عاماً للتنظيم: غاب ابني عن البيت دون سبب ولم استطع ايجاده في المدينة بعد بحث استغرق اكثر من اسبوع ، ليخبرني عناصر التنظيم أنه ألتحق بمعسكرات التنظيم، عندما طلبت منهم اعادته : قالوا لي "انك لن تستطيع استرداد ابنك لأنه يتبع معسكراً واسمه السمع والطاعة و من يغادر التنظيم بعد اتباع هذا المعسكر يعتبر مرتداً ويطبق عليه حد الردة وهو القتل" ولم أعد أعرف هل أعيده الآن مقتولاً أم أنتظر أن يفجره الأمير لتحقيق مآربه.

وفي الوقت الذي يعاني التنظيم من إقناع المقاتلين السوريين بتنفيذ عمليات انتحارية مستخدمين «القرعة » لاختيار اسم المنفذ، اضافة لعدم ثقته بالمقاتلين الجدد في المدن التي سيطر عليها « كونهم لم يتربوا تربية اسلامية صحيحة » حسب وجهة نظر التنظيم، يبث صوراً لمقاتلين لا تتجاوز اعمارهم الخامسة عشر يقومون بعمليات إعدام لأسرى وقعوا بيد التنظيم واصدارات لعمليات انتحارية يظهر منفذيها وهم من الأطفال، فالهدف الأبرز من تجنيد الأطفال الذي ارتفع بشكل كبير في الفترة الأخيرة بعد اتساع دائرة المواجهة ، هو تحويلهم إلى قنابل موقوتة وذلك لسهولة تجنيدهم، إلى جانب الحاجة إلى كوادر جديدة تضمن استمرار المعارك بعد الحرب الدائرة عل الإرهاب، ففي حرب جندت كل من حولها ، وجعلتهم حطب لتستعر نارها، طرفان تنازعا فيما بينهما لصنع متطرف صغير سيمتد مع الأيام ، نظام لوث صفو السماء بطيارته ، وتنظيم صبغ مدينتهم بالسواد ، باتت مدارسهم بين مدمر بصواريخ الأسد ، أو مقراً لعناصر التنظيم باتوا يرون أشخاص يدعون الخلود والأسطورة ، هذا الأمر الذي استغله التنظيم وأوهمهم أنهم إذ ما انضموا سيكونون أحد أبطال العصر، واقع حرف أعين الجميع والاطفال تحديداً ليروه من منظورهم الخاص، بيت مدمر وسواد يلتحف الجميع ورفاق حي باتت الإصابات علامة مميزة لهم، وعائلة صب الزمان عليها كل أنواع عذابه ليكون الجوع أخرها ، فقرر المضي بطريق مريلتمس منه الحلاوة لمن حوله يقول أحمد من أهالي مدينة الرقة: لفت نظري طفل يتجول في الشارع معلقاً على كتفه بارودة ارتفعت فوق رأسه، أدهشني المنظر لأنني كنت استغربه عندما اشاهد على التلفاز في صفوف بعض الميليشيات الأفارقة، فكيف وأنا أراه اليوم في صفوف أبنائنا الذين أتوقع أن مقاعد الدراسة هي المكان المناسب لهم واتبع التنظيم الأسلوب التحريضي لجذب الأطفال حيث أمن لهم عددا من الأنشطة الترفيهية عن طريق الخيم الدعوية التي تقام بشكل دوري ليتم توزيع الهداية الرمزية عليهم ، والأجواء الخاصة التي غالبا ما افتقدت في البلد بسبب النزاع الدائر، وبهدف جذب مزيد من المراهقين يتم ترتيب اللقاءات في المدارس حول موضوع الحرب، ويفهم الأطفال أن باستطاعتهم القتال بغض النظر عن موقف الأهل من قرار ابنهم الذي سيدعمه التنظيم ويحميه. خطاب اعتمده التنظيم أيضا في المساجد ، وسواء في المدارس أو المساجد، يستهدف التنظيم الأطفال الذين يتعدى عمرهم التسع سنوات، فالأطفال يمكنهم التنقل بسهولة وخفة في المناطق الساخنة، ولا يكونون موضعا للشك من عناصر العدو أو الجيوش النظامية، كما إن تجنيد الأطفال يشكل مجموعات متتالية من العناصر الجهادية التي ستكبر على الإيمان بالنهج الذي يعتنقه التنظيم .

ولم تقتصر ممارسات التنظيم على استخدام الأطفال، لتنفيذ العمليات الانتحارية أو القتال فحسب ، بل جعلهم التنظيم أيضا جلادين. فقد سلط تقرير للأمم المتحدة نشر في شهر نوفمبر٢٠١٤ الضوء على الاستخدام الممنهج من قبل التنظيم للأطفال ما دون الـ١٨ كجلادين، متحدثا عن المقاتل الذي يبلغ عمره ١٦ عاما الذي نفذ عملية قطع رأس جنديين، كان التنظيم قد اختطفهما من قاعدة طبقة الجوية

في أواخر أغسطس عام ٢٠١٤، في سلوك (الرقة)، كما أظهر شريط فيديو آخر طفلا لا يتعدى عمره ٨ سنوات يقوم بإعدام رجلين اتهمهما التنظيم بأنهم جواسيس لروسيا.
أشبال الخلافة و معسكر الزرقاوي وأشبال العز، أسماء معسكرات أقامها التنظيم تضم مئات من الأطفال الذين يتم تدريبهم على استعمال الأسلحة والرمي بالذخيرة الحية وخوض الاشتباكات والمعارك والاقتحامات.
لتحمل خط سير التنظيم ، ويتم تسليط كل التأثيرات الخطابية وبرامج الإعداد ليصبح خيار القتال والاقتناع باستراتيجية التنظيم العسكرية الخيار الأوحد، بحكم ما يحمله الشباب من قناعات تم تكريس كل أساليب الإقناع ليصل إليها طوال فترة العزل عن المجتمع ، مستغلين حالة العاطفة الدينية لصغار السن، الذين عادة ما يكونون انخرطوا في تجربة تدين حديثة، مصحوبة بالاندفاع شديد، ويحرص التنظيم في معسكرات التدريب على تأمين الملبس والمسكن ووجبات الطعام ، وهو يعتبر الأطفال من أولوياته محاولا كسب ولائهم على المدى البعيد من خلال تلقينهم آيديولوجيته التي يحاول فرضها في المناطق الخاضعة لسيطرته.
عادل مدرس في مدينة الرقة تلقى بلاغاً من التنظيم للانضمام لدورة شرعية عقدها لتدريس المنهاج الجديد، يقول: تسلمت التبليغ عن طريق أحد تلاميذي السابقين ويبلغ من العمر ١٥ عاماً، لم يبقَ منه سوى وجهه، فهو اليوم يحمل سلاحاً ويرتدي «الباكستانية» ويرافقه عناصر من التنظيم، ويخاطبني بنبرة صوت مرتفعة علماً أنه كان من التلاميذ الخجولين المنعزلين لدي، ويختم خطابه بالتهديد والوعيد في حال عدم حضوري للدورة وأنه سيعتبرني من الكفرة والمرتدين ويقيم علي الحد.
ونتيجة المناخ العاصف بمحافظة الرقة، سهل جذب اكبر عدد ممكن من الاطفال للمشاركة في الحرب ، نتيجة ايقاف التنظيم للمدارس التي كانت موجودة واستبدالها بمدارس تابعة له، وتدهور التعليم بعد تغييره واصدار منهج تعليمي يخدم فكر التنظيم واجبار الاطفال على تلقيه ليرافقهم أينما ذهبوا، مما سخر لانتشار الجهل وسهولة التجنيد لخلق جيل جديد يعيشون حالة مسخ الهوية واضفاء صبغة بعيدة عما كانوا عليه تثبيت هذه الصبغة كطابع رئيسي لدى الأطفال . ويضاف إلى الجانب النظري الذي يتلقوه ، الجانب العملي الذي يلقى اهتمام واسع من قبل التنظيم ، حيث يخضع الأطفال إلى حصص تدريب عسكري داخل المدارس على الاسلحة الخفيفة أووضع القنابل بين أيديهم لكسر حاجز الخوف من السلاح ، وتختلف الأسلحة التي يتم التدرب عليها حسب العمر والهدف من التجنيد .
وبثت مواقع مناصرة لتنظيم الدولة نشرت في سبتمبر (أيلول) من العام الفائت صورا لطفل زعم أنه أصغر مقاتل أجنبي يقتل في معركة، ولم يكن يتعدى العاشرة من العمر، وراح أنصار التنظيم يتناقلون صور الطفل متباهين بأنه أصغر شهيد. كما نشرت مقابلة في شهر «Independent» صحيفة الـ فبراير (شباط) الماضي، مع مراهق يبلغ ١٧ عاما من العمر، اعتقل قبل أن يتمكن من تنفيذ هجوم انتحاري في العراق. وقال الشاب الذي اعرب عن ندمه على تصرفاته أن كثيرا من المهاجمين الانتحاريين كانوا أصغر سنا منه وتراوحت أعمارهم بين ١٣ و١٥ سنة.
وفي شهر نوفمبر(تشرين الثاني) الماضي، نقلت «وكالة الصحافة الفرنسية» عن نشطاء في مدينة عين العرب شمال سوريا، أنهم لاحظوا وجود أطفال يقاتلون إلى جانب مسلحي التنظيم، وذكرت الوكالة أنه تم العثور على جثث ٤ أولاد، اثنين منهم تقل أعمارهم عن ١٤ عاما شاركوا في هجمات انتحارية. كما تم رصد مقاتلين من الأطفال أيضا في محافظة

”عادل مدرس في مدينة الرقة تلقى بلاغاً من التنظيم للانضمام لدورة شرعية عقدها لتدريس المنهاج الجديد، يقول: تسلمت التبليغ عن طريق أحد تلاميذي السابقين ويبلغ من العمر ١٥ عاماً، لم يبقَ منه سوى وجهه، فهو اليوم يحمل سلاحاً ويرتدي «الباكستانية» ويرافقه عناصر من التنظيم، ويخاطبني بنبرة صوت مرتفعة علماً أنه كان من التلاميذ الخجولين المنعزلين لدي، ويختم خطابه بالتهديد والوعيد في حال عدم حضوري للدورة وأنه سيعتبرني من الكفرة والمرتدين ويقيم علي الحد، لم يذكر أنه نشبت نزاعات بين هذه الجماعات، المختلفة عن بعضها عقائدياً أو إثنياً، كما أنه لم يُذكر أنه عكّر صفو المدينة تكتلات اجتماعيّة لها طابع مذهبيٌّ أو غير ذلك“

حلب السورية، وفقا لوكالة الصحافة الفرنسية. ويسعى عناصر "التنظيم" إلى استمالة الأطفال والتودد لهم عن طريق إغرائهم بالمال وحمل السلاح وتعليمهم قيادة السيارات، ليقنعوهم بعد ذلك بالانتساب إلى المعسكرات ويتم استخدام الأطفال .كمخبرين في جمع المعلومات وحراسة المقار وظاهرة تجنيد الاطفال قديمة ، إلا أن ارتفاع نسبة التجنيد ونشر الصور من قبل الجهات المجندة، سمح بتداول القضية اعلامياً وخروجها من اروقة المنظمات الحقوقية وتحويله إلى قضية عامة دون قراءة للنتائج والآثار المترتبة على تفشي ظاهرة استغلال الأطفال من قبل المجموعات المتطرفة.وانتقل ملف تجنيد الأطفال واستغلالهم في النزاعات المسلحة والعنف الفكري والعملي من كونه ظاهرة مستهجنة تحاول التنظيمات نفيها أو تكذيبها، وربما تبريرها على استحياء، إلى ظاهرة تتبجح التنظيمات المسلحة في تبنيها .

من جهته أكد أخصائي علم نفس الطفل الدكتور مراد المحمد، أن ضغوطات الحرب التي يتعرض لها الطفل، هي اكبر المشاكل التي يواجها في حياته، وله نتائج كارثية على مستقبله، حيث يكبر هذا الطفل على مبدأ العنف والقتل بجانب الصراع الداخلي الذي يحاول إخفائه عمن حوله ، والذي قد ينفجر في أي لحظة بعد انتهاء الحرب ، وهو ما يعرضه لتشوهات نفسية نتيجة اثار الحرب التي تستمر معه .

واضاف المحمد أن الأطفال يحتاجون لإعادة تأهيل ولرعاية نفسية خاصة نتيجة المرحلة التي مروا بها ، إلا أن الخطابات التي تلقوها وشرعنة القتل والانتحارتصعب من المهمة .

وتجنيد الأطفال يندرج تحت باب جرائم الحرب حسب القانون الدولي الذي يعرّفه بأنه الحالة التي يحمل فيها أي طفل دون الـ١٨ من العمر السلاح خلال النزاعات المسلحة، اضافة الى كل أنواع استغلال الأطفال التي قد تشمل تعرضهم للأذى البدني أو النفسي أو الموت، تندرج تحت بند جرائم الحرب، إن كان القصد من التجنيد المشاركة في العمليات العسكرية بشكل مباشر أو من خلال الأعمال اللوجستية أو الاستخباراتية.

وتم تسليط الضوء في الفترة الأخيرة من قبل الجهات الحقوقية والدولية المنددة بممارسات التنظيم ضد الإنسانية والطفولة، حيث كشفت لجنة حقوق الطفل التابعة للأمم المتحدة أن التنظيم يقوم بقتل بعض الأطفال المخطوفين لديه في العراق ويحرقهم وهم أحياء أو يبيع بعضهم في الأسواق كرقيق.

كما قالت اللجنة إن "داعش" يستخدم أطفالا دون سن الـ١٨ كمهاجمين انتحاريين أو لصنع قنابل أو ليكونوا دروعا بشرية ضد الهجمات التي يتعرض لها من قوات التحالف.

ودانت لجنة حقوق الطفل القتل الممنهج للأطفال من أقليات دينية وعرقية بما في ذلك عدد من حالات الإعدام الجماعي لصبية وكذلك تقارير عن قطع رؤوس وصلب أطفال وحرق أطفال أحياء.

من جهتها، أكدت منظمة الأمم المتحدة للطفولة "اليونيسيف" قيام "داعش" والجماعات المسلحة في سوريا بتجنيد الأطفال واستخدامهم في النزاعات المسلحة.

وقالت ممثلة اليونيسيف والأمم المتحدة الخاصة المعنية بالأطفال والنزاعات المسلحة في "اليوم العالمي لمحاربة تجنيد الأطفال" إن "ارتفاع حدة، ووحشية، وانتشار النزاعات يعرض الأطفال بشكل متزايد لخطر التجنيد والاستخدام من قبل المجموعات المسلحة".

ودعت "اليونيسيف" إلى العمل بشكل طارئ للقضاء على الانتهاكات الجسيمة لحقوق الأطفال، بما فيها تجنيدهم واستخدامهم في النزاعات المسلحة، وضمان التزام أطراف النزاع ببنود القانون الدولي.

رهانات الدولة الكوردية

شفان إبراهيم

منذ بلورة النظام العالمي المعاصر، وقيام النظام الليبرالي الديمقراطي عوضاً عن النظام الاشتراكي، وأتساع رقعة موجة العولمة الثالثة، وتفعيل حقوق الأقليات وإخراجها من خانة حقوق الإنسان. وتفكيك الكتل والتحالفات السياسية القائمة على الديكتاتوريات والاستبداد وتغيير النظام الاقتصادي، وتفعيل دور الفرد في المجتمع البشري. زادت الحاجة إلى نقطة ارتكاز في الشرق الأوسط، تتمتع بثقل سياسي، وخزان بشري، ليقود دفة التغيير عبر دعمه دبلوماسياً وسياسياً وعسكرياً. ولعل تبني جينوسايد الأنفال وقصف حلبجة تدخل في إحدى زوايا الدعم الدولي للقضية الكوردية.

في خضم كل هذه المتغيرات السياسية، يبرز للسطح مجدداً رهانٌ كوردي ثلاثي الحوامل يُشير لخصوصية الدولة المرتقبة. إضافة إلى أن الساسة الكورد مُطالبون بتقديم ما يُميز قيام دولة كوردستان عن غيرها من الدول. إذ العبرة لا تكمن في زيادة عدد دول الشرق الأوسط، إنما يكمن التغيير البنيوي في ضرورة وجود دولة كوردية مميز بشعبها وصيانتها لمصالح الدول الغربية، هذه التجليات كلها تبرز من خلال حوامل ثلاث هي:

١ - الحامل الاجتماعي كاملاً وفق ضرورة تقسيم العمل من حيث أن البدء بمشروع الدولة لابد أن يفصح عن آلياته وبنيته، والإفصاح عن الإمكانيات التي يمكن أن تبرز في تطور لاحق منها

٢- الحامل الثقافي المتمثل في بنية المجتمع الفكري سواء ثقافية دينية أو فكرية، وضرورة وجود فكر فلسفي نقدي تحليلي لخلق مجتمع مبني على قيم واضحة المعالم.

٣- الثقافة الفلسفية

لكن حتى هذه اللحظة فإن انطلاقتنا من التأسيس لمجموعة الأفكار المنطقية التي تضبط فهمنا للمسألة، من العام إلى الخاص، ومن الخاص إلى الأكثر خصوصية، لا تزال ناقصة ومبتورة وهي **بحاجة إلى مجموعة من الشروط:**

١- الشرط الأول ويعود إلى التاريخ، وهو تقسيم العمل

٢- وجود مؤسسة ينتج من خلالها السياسي

٣- التفرغ من أجل الإبداع الفكري والثقافي.

هل الكورد سبب المشكلة؟.

قبل الخوض في الرهانات المعقودة على الكورد، يجب التدليل على أن مؤسسات إعلامية ضخمة شوهت الكورد وتاريخهم ووجودهم القومي في الأجزاء الأربعة. ولعل ما ورد في مقالة لوزير الثقافة في حكومة عام ١٩٦٤ السيد سليمان الخش في ذكرى انسلاخ لواء اسكندرون خير مثال على ذلك، قائلاً (أيها الأخ العربي إذا زج بك يوماً في معركة مع العدو الصهيوني فلتكن رصاصتك الأولى إلى رأس هؤلاء الخونة الأكراد، الأرمن، الجراكسة عملاء المعسكرين) ..نشرت المقالة في مجلة الغد التي كانت تصدر من مدينة حماة حيث حمل الأقليات الكوردية والارمنية والجركسية مسؤولية تقسيم فلسطين وانسلاخ لواء اسكندرون. ويمكننا طرح معادلة مغايرة على النحو التالي: لو كان الكورد سبب المشاكل واقتطاع أجزاء من جسم الدول التي يعيشون فيها، ما سبب المشاكل والنزاعات بين كل من (الطوارق في ليبيا، الأمازيغ في المغرب، البربر في تونس، الأقباط في مصر، قضية جنوب السودان وحكومة المركز، الحوثيين في اليمن) حينها تنجلي الصور بوضوح، فالمشكلة ليست في الأقليات، بل في عقلية السلطة العربية القائمة على الإنكار والإيغال في التعريب ونسف مبادئ حقوق الإنسان وحقوق الأقليات.

النفط العامل الأبرز لإعلان الدولة الكوردية لأول مرة سيكون أمام الكورد فرصة سانحة لإعادة كتابة التاريخ الكوردي في المنطقة من جديد. بات الكورد هم من سيناقشون وضع كوردستان في المحافل الدولية. ترافق ذلك بتغير العلاقة بين الإقليم الكوردستاني وتركيا، بكون هذه الأخيرة وكبلد ينمو الاقتصاد فيه بشكل مطرد فإنها بحاجة إلى الطاقة، وتبدو حكومة إقليم كوردستان واحدة من أفضل الخيارات لذلك، وكلا الطرفين يتلمسان حاجة كل منهما للأخر، وكلٌ وفقَ مصالحهِ الإستراتيجية الطويلة الأمد، وما توقيع الجانبان لصفقات الطاقة إلا خير دليل على مدى التقارب الحاصل بينهما على أساس قوتين في المنطقة، بعد أن وصلا منذ سنوات إلى سياسة صفر مُشكلة. إضافة إلى رغبة تركيا بالوصول إلى الدولة الاقتصادية العاشرة على مستوى العالم، وهي تضغط باتجاه توسيع عدد الدول الثمانية الكبرى لتكون بين الدول العشرة، وتعد كوردستان العراق العامل الأبرز في تقوية الاقتصاد التركي. من جهة أخرى فالنفط المنتشر بكثافة في كوردستان سوريا، ستعتبر فرصة سانحة للاتفاقات الاقتصادية مع الجانب التركي الذي يشترك بحدود برية مع كوردستان سوريا بحوالي (٨٠٠) كم. وتركيا تعي جيداً أن ما نسبته ٩٠٪ من ميزانية الدولة السورية سنوياً تُجمع من كوردستان سوريا. بالنسبة للكورد فإن النفط يمثل الأمل والخلاص، وهو أيضاً طريق معبد من المسامير

دراسة صادرة عن مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، تقوم حنطة بنشرها على جزئين

الجزء الأول
دراسات ميدانية في أثر الصراع في سوريا على المجتمع السوريون وتجربة النزوح
العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً

فريق بحثيّ بإدارة الباحث صبر درويش
أشرف على البحث وحرره: يوسف فخر الدين

توطئة

أجبرت الحربُ الدائرة الآلاف من الأسر السوريّة على ترك مكان سكنها، والنزوح إلى مناطق أكثر أماناً، وهو ما جرى مع العديد من أسر مدينة حماه ومدينتي حمص وحلب، وريف السلمية الشرقي، التي نزحت للعيش في مدينة السلمية. حيث بلغ عدد النازحين إلى المدينة نحو ٥٠ ألفاً، وفي كثير من الحالات، انتقل النازحون إلى بيئاتٍ مختلفةٍ ثقافياً، ودينياً أيضاً، كما حصل في مدينة السلمية، واحتكّ السوريون من مشارب مختلفة مع بعضهم، حيث برزت مجموعةٌ من الأسئلة حول آثار هذا الاحتكاك والتمازج الاجتماعيّ على سلوكيّات الأفراد وأفكارهم.

في هذا السياق، يُطرح السؤال حول العلاقة بين سكان السلمية والنازحين قسرياً إليها؛ وما يتفرع عنه من أسئلةٍ فرعيّةٍ حول طبيعة المكوّن الاجتماعيّ/التاريخيّ للمدينة، وعن الذهنيّة التي تولّدت من هذه الطبيعة عبر العقود، والتي سهلت نشوء تياراتٍ ثقافيّةٍ سياسيّة ذات طابع وطنيٍّ ديمقراطيّ –إلى هذا الحد أو ذاك- وعن تفاعل هذا المكوّن، وما تبقى من هذه التيارات، مع الثورة، وتحديداً مع حالة النزوح التي نتجت عن قمع سلطة الاستبداد للثورة؛ وتالياً لينشغل التفكير في العلاقة الناتجة عن تلاقي الخصوصيات (خصوصية المدينة، مع خصوصية النازحين)، والآمال والانكسارات التي عرفها هذا التلاقي في سياق صراعٍ مفتوح، وإدارة سلطة الأسد التفكيكيّة التي جهدت لوضع السوريين في مواجهة بعضهم.

وعلى الرغم من أنه لم يغب عن بال فريق العمل، الذي أنتج البحث الذي بين أيديكم، صعوبة المهمة التي يتصدى لها، والتي تصل في جوانب منها إلى الاستحالة، في ظلّ وضعٍ أمنيٍّ يؤهلهم ليكونوا ضحايا في أي لحظة، إن انكشف مسعاهم، ونتيجة النقص الشديد بمجال توثيق المعلومات والتفاصيل -فقد أخذ الفريق على عاتقه السير في هذه المهمة الشاقّة، على اعتبار أنها محاولةٌ لاستكشافٍ أوليٍّ لأرض مجهولة، على أمل أن تكون معيناً لباحثين آخرين يتحملون عبء البحث المضني في مجالٍ مازال ما قيل فيه قليل؛ وأن يتابع مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، عبر أبحاث متتالية، استكمال ما بدأه.

أهداف ومنهجيّة البحث

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقديم دراسةٍ وصفيّةٍ في جوانب من التغيّرات التي حصلت على معرفة السوريين ببعضهم، ومواقفهم تجاه بعضهم، مع التركيز على الظروف القاهرة التي تمت بها، كمرحلةٍ لازمةٍ لمقاربة تعريفهم لهويتهم الجامعة. وقام فريق البحث بهذه المهمة عبر الإجابة عن أسئلةٍ قد تبدو إجاباتها بديهية بالنسبة لموطنين في دول ديمقراطية، مثل: «ما مدى معرفة السوريين لبعضهم؟»، إلا أننا نجد في الواقع أن السوريين حتى تاريخ اندلاع الثورة كانوا يعيشون تحت نير نظامٍ كرسهم جماعات مغلقة أشبه بالكانتونات، تفتقد إلى الكثير من المعرفة و المعلومات عن بعضها. ونجد أنه في غياب هذه المعرفة حلت الأساطير والخرافات محل معرفة السوريين لبعضهم، وباتت هذه الخرافات الاجتماعية جزءاً أساسياً من الثقافة السورية السائدة، وهو شرخٌ ربما ساهمت الثورة السورية في ترميم أجزاء منه، عبر ما وفرته ظروف الصراع من انفتاح العلاقات الاجتماعية على بعضها، وما مكنته من اختلاطٍ بين مكونات

المجتمع السوريّ، ما كان لها أن تتمَّ لولا انفجار الثورة السورية، ومحاولة السوريين فتح باب التغيير الاجتماعيّ والسياسيّ. قبل أن تؤدي مجريات الصراع إلى حرف المسار، وعودتهم إلى الانكفاء على أنفسهم. لكن التجربة، والمعرفة، حصلت فعلاً، بإيجابيها وسلبياتها، وهو ما نبحث في بعض جوانبه.

وقد اعتمد البحث بشكل رئيسي على المراقبة المباشرة، والشهادات، نتيجة استحالة استطلاع الرأي عبر سبل أخرى بما فيها الاستبيانات. وفي ظروف أمنية شديدة الوطأة عمل فريق البحث على جمع شهادات من الناشطين المدنيين (ناشطين ثوريين، ناشطين إغاثيين، مثقفين)، والنازحين، وسكان السلمية (من فئات مختلفة منهم مدرسون). كما حاول فريق البحث استكمال المعطيات عبر البحث المكتبي، على الرغم من قلة المصادر في الموضوع؛ وقام الفريق بمراجعة الإصدارات المرئية، والصور، وتصريحات الناشطين والمثقفين من أبناء وبنات المدينة، وما توفّر من نصوصٍ منشورة عن موضوع البحث. واعتمد البحث التحليل الوصفيّ للشهادات، مع تثبيت المراجع في المتن حيناً، والإشارة إليها في الهامش أحياناً أخرى حتى لا تُشتت كثرتها في المتن القارئ .

الفصل الأول

النزوح القسري إلى مدينة السلمية في ظلّ حكم «سلالة الأسد»

شهدت مدينة السلمية الواقعة إلى الشرق من مدينة حماه، موجاتِ نزوحٍ مختلفة على مرّ العقود، وربما تكون آخر موجة نزوح على المدينة تلك التي حدثت في عام ١٩٨٢، أثناء ارتكاب نظام الأسد الأب لمجزرة حماه.

في تلك الأثناء توجهت العشرات من الأسر الحموية إلى مدينة السلمية هرباً من الحرب الدائرة في شوارع مدينتهم. وبعد أن هدأت الحرب، عادت الكثير من أسر النازحين إلى منازلها، وبقي في مدينة السلمية أسرٌ أخرى استقرت فيها وتابعت عيشها.

في مدينة السلمية خليطٌ اجتماعيٌّ مثيرٌ للانتباه بالنسبة لمدينةٍ متوسطة في سوريا، حيث يوجد غرب المدينة حيٌّ يكنى باسم حي الحموية، حيث تجمعت الأسر الحمويّة النازحة إلى المدينة في هذا الحي، وبُني جامعٌ لهم؛ بينما على صعيد النشاط الاقتصادي، فقد أحضر هؤلاء النازحون معهم مهنهم وأموالهم ونشاطهم الاقتصاديّ بطبيعة الحال، فافتتحوا المحالَّ التجارية المختلفة، وزاولوا مهنهم كما كان يجري الأمر سابقاً في مدينتهم الأصل، وتملّكوا العديد من العقارات السكنية والتجاريّة، واليوم يوجد العشرات من المهن والورش وغيرها معروفة أنها «للحمويين» المتواجدين في المدينة( ).

لا يقتصر الأمر على الأسر الحمويّة، بل تضم المدينة أيضاً جماعات أخرى كانت قد نزحت إلى المدينة في ظروفٍ مختلفة، ففي السلمية سنجد بالإضافة إلى «حارة» الحمويّة، حارة «القدامسة»، وهو الحي الذي يضمُّ نسبةً عاليةً من الأسر التي نزحت من بلدة القدموس غرب سوريا في سنوات ماضية.

كما يوجد شرق السلمية حارة تدعى حارة «المشارفة»، في إشارة إلى الأسر التي تعود إلى أصول بدوية والتي استقرت تاريخياً في المنطقة وبنت منازلها واندمجت بالمدينة.

إضافة إلى ما تقدم تضمُّ المدينة ولو بنسبٍ أقل، مجموعات وافدة أخرى، كالشركس، والكرد، والعلويين، وغيرهم من الجماعات. بينما الجماعة الأكبر التي تقطن مدينة السلمية، فهم من الطائفة الإسماعيليّة، وحتى على صعيد هؤلاء، كان الكثير من أسرهم قد نزحت تاريخياً من قرى وبلدات الساحل السوريّ، وتحديداً من محافظة طرطوس، إن كان هرباً من الحروب أو هرباً من الفقر.

وفي كلّ الحالات، تشكّل مدينة السلمية تنويعةً سكانيّة غنيّة ومتميزة، فهي تضمُّ وفقاً لما تقدم: غالبية تنتمي إلى الطائفة الإسماعيلية، التي تعتبر مدينة السلمية –معنوياً- مركزها العالميّ، وحمويّة، وعلويّة، وأدالبة، وبدو، وكرد، وشركس، وسنّة (من السكان الأصليين لمدينة السلميّة، وممن نزحوا إليها) وغيرهم.

عبر العقود الماضية، لم يذكر أنه نشبت نزاعات بين هذه الجماعات، المختلفة عن بعضها عقائدياً أو إثنياً، كما أنه لم يُذكر أنه عكّر صفو المدينة تكتلات اجتماعيّة لها طابع مذهبيٌّ أو غير ذلك، وعلى الرغم من أن المدينة وفرت عوامل استقرار إلى الوافدين إليها، وربما بسبب ذلك حافظت الجماعات الوافدة نسبياً على هويتها الدينية أو الإثنية، فظلّ الحموية معروفين في المدينة، إن كان من خلال لباسهم أو من خلال لهجتهم التي حافظوا عليها، وكذا الأمر بالنسبة لباقي الجماعات ولو بنسب أقل.

ولا يوجد مراجع موثقة حول أشكال الاندماج الاجتماعيّ المحتملة بين الجماعات في مدينة السلمية، إلا أنه وبالاستناد إلى المشاهدات العيانية، فإن أغلب هذه

الجماعات بقيت منغلقة نسبياً على نفسها، حيث معدلات التزاوج من خارج الجماعة سنجده في حده الأدنى، هذا إن وجد، بينما السكن، ففضلت أغلب الأسر اختيار السكن بالقرب من الجماعة التي تنتمي إليها، وتنطبق هذه الملاحظة أيضاً على طقوس الزواج وعلى أشكال اللباس وغيرها من الطقوس الاجتماعية.

وتشير الملاحظة، إلى أن أغلب الجماعات الكبرى الوافدة إلى المدينة (كالحمويّة والعلويّة والبدو) اختاروا السكن في أطراف المدينة، فحارة «المشارفة» التي تقطنها غالبية من البدو، عندما أنشئت كانت في الطرف الشرقي البعيد من مركز المدينة، حتى إن هذا الحي لم يكن موجوداً أصلاً، وأنشأته الأسر البدوية التي اختارت الاستقرار في هذا الحيز، والأمر ينطبق على حارة الحمويّة غرب مدينة السلمية، حيث لم يكن من حي في هذه المنطقة أيضاً، وقامت الأسر الحموية بشراء الأراضي في هذه المنطقة وبناء منازلها فيها، ولا يختلف الأمر بالنسبة للعلويين، الذين اختاروا التجمع جنوب مدينة السلمية في حي يدعى «ضهر المغر».

وتقف خلف هذه الخيارات عواملُ متعددة، قد يكون رخص الأراضي السكنيّة في أطراف المدينة من بين هذه الأسباب، وقد يكون الخوف من الاندماج– أو عدم الاندماج- عاملاً يدفع بالجماعات الوافدة إلى النأي بنفسها عن الاحتكاك المباشر بالسكان الأصليين؛ وقد تكون تلك الخيارات انعكاساً لآلياتٍ دفاعيّةٍ جماعيّةٍ للحفاظ على هويتها وتماسكها الداخليّ، وشكلاً من أشكال التضامن؛ بينما يوفر التكتل السكني بالنسبة لهذه الجماعات تعويضاً عن شبكات الحماية التي افتقدتها بسبب نزوحها، وهو شيء يعكس ميل الجماعة إلى ابتكار شبكات حماية جديدة، تتمكن بواسطتها من الحفاظ على هويتها الاجتماعيّة؛ ومن جملة العوامل الإضافية التي دفعت بالجماعات الوافدة إلى اختيار ضواحي المدينة للسكن، قد يكون عدم رغبة السكان الأصليين ببيع أو تأجير العقارات لهذه الجماعات، لأسباب قد تكون طائفية بمعنى عدم الرغبة بالاحتكاك

بجماعاتٍ «غريبة» عن سكان المنطقة. وطبعاً هناك استثناءاتٌ لهذه القاعدة، فحارة «الجورة»، وهي من الأحياء القديمة والتي تقع وسط المدينة، ضمّت تاريخياً خليطاً متعدداً من الجماعات، حيث سنجد هنا أسر حموية، وأخرى إدلبية، وقدامسة، وكرد، إلى جانب أسر السلامنة المتواجدة منذ عقود طويلة.

النازحون قسراً إلى مدينة السلمية في ظلّ ثورة ٢٠١١

بعد انطلاقة الثورة السورية سنة ٢٠١١، وخروج العشرات من المظاهرات في المدن والبلدات السورية المختلفة أفضت ممارسات نظام الأسد القمعية إلى نزوح العشرات من الأسر السورية هرباً من مناطق النزاع، وبحثاً عن أماكن أكثر أمناً.

وبالنسبة لمدينة السلمية التي باشرت بإخراج العشرات من المظاهرات الحاشدة بدايةً من ١٨ و٢٥ آذار واستمرت بالتنامي حتى وصلت أعداد المتظاهرين إلى الآلاف، والتي تعامل معها نظام الأسد بشكل خاص، حيث لم يتمّ قصف المدينة ولا استخدام العنف المسلح ضد ناشطيها السلميين، سوى في حالات جدّ خاصة( )، فقد شكلت بيئة آمنة نسبياً للنازحين.

وشهدت المدينة ومنذ بداية حزيران ٢٠١١، عدة موجات من النزوح، أولها النزوح الذي حصل من مدينة حماه إثر ارتكاب نظام الأسد لمجزرة أطفال الحرية في الثالث من حزيران ٢٠١١ وتصاعدت ووصلت إلى ذروتها بعد اقتحام مدينة حماه وقصفها من قبل قوات النظام، وتلاها موجات نزوح من مدينة حمص التي تحوّل فيها الصراع السلميّ إلى شكله المسلح منذ أواخر عام ٢٠١١، وتلا هذه الموجات من النزوح، النزوح الذي أصاب سكان القرى والبلدات الواقعة شرق مدينة السلمية، على إثر اشتعال المعارك بين مقاتلي المعارضة وقوات النظام، فيما دعي بمعارك فك الحصار عن مدينة حمص، بالإضافة إلى قدوم نازحين من محافظة حلب وريف إدلب والرقة وريفها، ولاسيّما بعد أن باتت هذه الأخيرة في قبضة تنظيم الدولة الإسلامية في الشام والعراق «داعش».

أ- نازحو مدينة حماه

لم تكد تمضي بضعة أسابيع على المظاهرات التي خرجت في مدن وبلدات سورية المختلفة، حتى وصلت شرارة الحراك الثوري إلى مدينة حماه. وهي المدينة التي اختبرت عنف نظام الأسد الأب في الثمانينيات من القرن المنصرم، ودفعت ضريبة باهظة، ماتزال حاضرةً في ذاكرة أهالي المدينة.

ورغم ذلك، وخلال بضعة أسابيع، انتفضت المدينة عن بكرة أبيها، وتمكنت خلال هذه الفترة من عام ٢٠١١، وتحديداً في أشهر نيسان وأيار وبداية حزيران، من إخراج أكبر المظاهرات السلمية في البلاد، وهو ما شكل دفعاً كبيراً للحراك الثوري في سوريا بشكل عام.

لا تختلف طريقة تعاطي نظام الأسد مع

الحراك الثوري في مدينة حماه عن غيرها من المدن السورية الثائرة؛ حيث زجَّ النظام بقوات الجيش وميليشيات الشبيحة وقوى المخابرات لقمع هذا الحراك، والذي تمخض عن ارتكاب قوات الأسد لأولى مجازره بحق المدنيين في مدينة حماه.

ففي الثالث من حزيران، وفي الجمعة التي سمّاها الناشطون السوريون «جمعة أطفال الحرية»، خرج المتظاهرون إلى الشوارع وفي أيديهم أغصان الزيتون وعلى أكتافهم أطفالهم، في تعبير منهم على سلمية حراكهم الثوري( ).

وفي تلك الأثناء قامت قوات الأسد بفتح النار على المتظاهرين، وأوقعت العشرات من الضحايا بين صفوفهم، ووصلت أعداد القتلى إلى نحو ٦٠ شخصاً، وعشرات الجرحى غيرهم( ).

دفع العنف الذي جوبهت فيه مظاهرات مدينة حماه إلى نزوح العشرات من الأسر الحموية إلى أماكن متعددة في محيط مدينة حماه، ومن ضمنها كانت مدينة السلمية.

وجدت أحداث مجزرة أطفال الحرية انعكاسها في مدينة السلمية من خلال خروج الآلاف من الأهالي بتظاهرات عمّت الشوارع، وبحسب العديد من الشهادات، رفع المنتفضون ولأول مرة شعار إسقاط النظام، كردة فعل عفوية على عسف قوات الأسد وممارساتها في مدينة حماه؛ في ذلك اليوم خرج العشرات من أهالي المدينة وبشكل عفوي إلى الشوارع، كما سارع الناشطون إلى النداء على الأهالي من أجل التبرع بالدم لأهالي حماه.

إذ بعد صلاة الظهر( )، وعند العودة إلى المنازل، سمع الناشطون بما جرى في حماه، وأحداث المجزرة المروعة التي حدثت، فأسرعوا للاتصال بمعارفهم وأصدقائهم هناك في حماه للتأكد ممّا جرى ويجري في المدينة، وبدأت نداءات الاستغاثة لطلب المواد الطبية والتبرع بالدم، فسارع الجميع للتبرع بالدم في المشفى الوطني في السلمية، أو في مركز بنك الدم، لكن ما حدث أنه لم يتم إيصال الدم إلى حماه عن طريقهما، بحجج شتى، وبالمحصلة منعت قوات الأسد أكياس الدم عن الناس، وهو ما دفع بالعشرات من بالناشطين إلى الذهاب إلى حماه للتبرع بالدم فيها.

كان مشفى الحوراني أهمَّ مشفى للتبرع بالدم، وطبعاً كانت جميع الطرق الرئيسة المؤدية إلى حماه مغلقة بحواجز تابعة لقوات الأسد، فاضطر الناشطون إلى الدخول إليها من طرقات أخرى من مداخل الريف والقرى المجاورة، وتمكّن الناشطون فعلياً من الوصول إلى المدينة والتبرع بالدم؛ وكان الملفت للانتباه في تلك الأثناء، قيام ناشطي مدينة حماه بحمل الشبان والشابات القادمين من مدينة السلمية على الأكتاف والهتاف لهم، في مشهد من التضامن الشعبي قلّ نظيره.

أدت العلاقات التجارية والاحتكاك الاقتصادي بين مدينتي حماه والسلمية، دوراً مهماً في بناء علاقاتٍ راسخة، كان لها كبير الأثر أثناء موجات النزوح التي أصيبت بها حماه المدينة؛ وفي بداية شهر آب وبعد أن قامت قوات الأسد بقصف مدينة حماه واقتحامها، ارتفعت أعداد الأسر النازحة من مدينة حماه إلى السلمية، وفي الحقيقة، شكلت هذه الفترة، الفترة الأهم على صعيد أعداد النازحين، حيث دخلت مدرعات النظام وقواته العسكرية إلى أحياء مدينة حماه ودمرت مساحات منها.

بسبب طبيعة تشابك العلاقات التي ربطت بين أهالي حماه وأهالي مدينة السلمية( )، حدثت اتصالاتٌ واسعة بين شخصيات من مدينة السلمية، تجار وموظفين وغيرهم، مع نظرائهم من حماه، وحدث تفاعل شعبي واسعٌ من أجل تأمين الأسر الحموية النازحة في تلك الأثناء، وعلى الرغم من أن مدينة حماه كانت محاصرة بالكامل من قبل قوات النظام، إلا أن الناشطين تمكّنوا من خلال استخدامهم للطرق الفرعية من إرسال العديد من السيارات التي تمكّنت من دخول حماه، وإخراج العديد من الأسر منها.

بعد عدة أيام، تمكّن النازحون من الخروج من مدينة حماه باتجاه مدينة السلمية، وهناك تمَّ استقبالهم من قبل الأهالي والناشطين؛ وبالمجمل كان العمل يجري بشكل شعبي عفوي، ففي هذه المرحلة كان وجود المنظمات الأهلية و المدنية في بدايته، وكان العمل السياسي المنظم بحدوده الدنيا،

> ”تشكّل مدينة السلمية تنويعةً سكانيّة غنيّة ومتميزة، فهي تضمُّ وفقاً لما تقدم: غالبية تنتمي إلى الطائفة الإسماعيلية، التي تعتبر مدينة السلمية – معنوياً- مركزها العالميّ، وحمويّة، وعلويّة، وأدالبة، وبدو، وكرد، وشركس، وسنّة (من السكان الأصليين لمدينة السلميّة، وممن نزحوا إليها) وغيرهم. عبر العقود الماضية، لم يذكر أنه نشبت نزاعات بين هذه الجماعات، المختلفة عن بعضها عقائدياً أو إثنياً، كما أنه لم يُذكر أنه عكّر صفو المدينة تكتلات اجتماعيّة لها طابع مذهبيٌّ أو غير ذلك“

فوقع على كاهل الأهالي والناشطين عبء استقبال النازحين وتأمين متطلباتهم.
أدت «التنسيقية»، وهي كيانٌ مدنيٌّ سعى ناشطون من خلالها إلى تنظيم حراكهم الثوري، دوراً مهماً على هذا الصعيد، وكانت التنسيقية إحدى الأطراف التي عملت بدأبٍ في سبيل تأمين احتياجات النازحين، وبحسب أحد الأعضاء المؤسسين للتنسيقية الأولى في المدينة، فقد جرى تنسيقٌ كبيرٌ بينهم وبين بعض الجمعيات الخيرية في المدينة «كجمعية البر»، حيث قدمت هذه الجمعيات الكثير من المساعدات والتبرعات التي حملها ناشطو التنسيقية إلى النازحين( ).
بداية الأمر وُزعت الأسر النازحة على البيوت والمزارع المتاحة، وشارك العديد من الأهالي الذين يملكون منازل فارغة بالتبرع بمنازلهم، وفرشت البيوت من خلال تبرعات الأهالي، حيث جرى دعوة الأهالي من أجل التبرع بأدوات منزلية ومفروشات وغيرها، وفعلاً تمّ تأمين قسمٍ كبيرٍ من هذه الأسر، والتي وصل عددها بحسب القوائم التي سجلها الناشطون إلى نحو ٢٠ ألف نازح( ).
في تلك الأثناء، كانت مدينة السلمية ما تزال خارج إطار القبضة الأمنية المحكمة، وكان للعمل المدني ثقله في المدينة، وكان لقوى المعارضة سلطتها على المدينة والتي حدّت بشكل كبير من تدخل قوى الأمن والشبيحة في شؤون الأهالي.
بسبب كل هذا، أدى الناشطون دوراً مهماً في دعم مدينة حماه بمعزل عن تدخلات قوى الأمن، حتى إنه وعندما قام بعض «الشبيحة» والعناصر الموالية لنظام الأسد، بوضع حواجزعلى مداخل مدينة السلمية من أجل منع النازحين من الوصول إليها، قامت مجموعةٌ من شبان المعارضة بالتصدي لهم، ومنعهم من التعرض للأسر النازحة.
كانت مدينة السلمية في ذلك الوقت تضج بالنشاطات المدنية السلمية، من مظاهرات عارمة( )، واعتصامات، وأمسيات يجري فيها إلقاء الخطب السياسية، والهتافات للثورة.. إلخ، وكان اقتحام حماه يرمي بظلاله القاتمة على مشاعر الناشطين ويستثير الحماس لدى قطاعات الشباب.

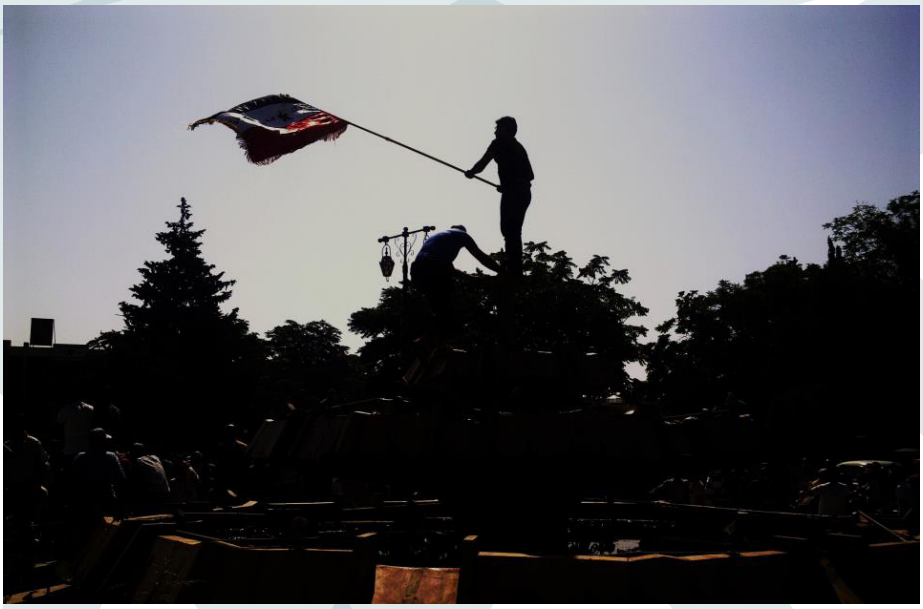

كان الموقف من نازحي حماه، هو شكلٌ من أشكال النضال السياسي، إذ اندرج في سياق الردّ على خطاب الأسد الذي اتهم، ومنذ الأيام الأولى للثورة السورية، المنتفضين بأنهم إرهابيون وتكفيريون، كما زعم أنه هو الجهة الحامية «للأقليات» في سوريا، فكان موقف أبناء مدينة السلمية من الثورة ومن اقتحام النظام لمدينة حماه، أشبه بردٍّ على هذا الخطاب، ولاسيّما عندما نعلم أن مدينة السلمية محسوبة على الأقليات الدينية.
وأياً يكن الأمر، فإن أهالي السلمية لم يترددوا في تقديم يد العون لأهالي حماه المنكوبين، والمثير للانتباه هنا، أن هذا الموقف لم يكن خاصّاً فقط بقوى المعارضة، بل إنه حتى الذين كانوا ما يزالون موالين لنظام الأسد، وقفوا إلى جانب إخوانهم الحمويين، وقدموا لهم يد العون في محنتهم تلك؛ وهو شكلٌ من أشكال التضامن الاجتماعيّ العابر للحسابات السياسية المباشرة.

ب- نازحو حمص العدية

في أواخر عام ٢٠١١، تردّت الأوضاع كثيراً في مدينة حمص الواقعة جنوب غرب مدينة السلمية، حيث تحولت النشاطات السلمية في كثير من أحيائها إلى العمل المسلح، ولاسيّما عندما أمعنت قوات الأسد في قمع مظاهرات المدينة بكلّ الأشكال العنفية المتاحة.
مع نهاية عام ٢٠١١ وحتى شباط من عام ٢٠١٢ سينزح عن مدينة حمص عشرات الآلاف من سكانها، سيتوجه قسمٌ كبيرٌ منهم باتجاه دمشق وريفها، كما سينزح قسمٌ آخر باتجاه ريف حمص القريب، بينما ستتوجه العشرات من الأسر باتجاه مدينة السلمية.
وفي شهر آذار من عام ٢٠١٢ وبعد سلسلةٍ من المجازر التي ارتكبتها قوات النظام وميليشياته بحقّ المدنيين، اضطر أغلب سكان حمص إلى النزوح عن منازلهم حيث باتت أحياء بابا عمرو وبابي السباع والدريب والحميدية وحمص القديمة كلّها مَهجورة تماماً وخالية من السكان.
وفي مدينة السلمية سعى الناشطون إلى استقبال الأسر الحمصية المنكوبة والهاربة من جحيم أحياء حمص المدمرة، بيد أن الزمن كان قد تغير في مدينة السلمية، حيث تمكنت قوات النظام من تعزيز مواقعها داخل المدينة، وتمكنت من احتلال شوارعها الرئيسة بالكامل، كما قامت قوات المخابرات بشنّ سلسلة من الحملات التي أفضت إلى اعتقال العشرات من الناشطين، وهو الشيء الذي أدى إلى قمع الحراك الثوري في المدينة ومنع خروج المحتجين إلى الشارع.
وقد سبق حالة النزوح من مدينة حمص إلى مدينة السلمية، مسار من العلاقات «الثورية» بين المدينتين، فمنذ النصف الثاني من عام ٢٠١١ عمل ناشطو مدينة السلمية بجهد على التنسيق مع ناشطين من مدينة حمص، فجرى «تهريب» المساعدات الطبية والغذائية إلى الأحياء المحاصرة في حمص وبعض القرى في ريف حمص كالرستن وتلبيسة، وكان ذلك دائماً بالتنسيق

بين شبان من مدينة السلمية وشبان من مدينة حمص، وهو ما أدى، وبشكلٍ تراكميّ، إلى تعزيز العلاقات بين الجانبين والأهم من ذلك تعزيز الثقة بين الشبان في ظروف كانت تزداد سوءاً مع الوقت( ).

في ربيع عام ٢٠١٢، باتت مدينة السلمية تحت قبضة قوى الأمن والجيش، وانتشرت قطعان الشبيحة من آل سلامة الموالين للنظام، «وبدأت حملة اعتقالات شملت المئات من الشباب، وشُكلت في السلمية كباقي المدن الأخرى لجان شعبية من العاطلين عن العمل ومن أصحاب السوابق، وحوصرت البلدة من قبل هذه اللجان، والتي عاثت في المدينة خطفاً وقتلاً ونهباً، والتي أقامت سجناً ومركزاً للخطف والقتل وطلب الفدية. فقد تم اختطاف عشرات الفتيات وسجن المئات»( ). وعلى ضوء ذلك خَفت صوت قوى المعارضة حتى كاد يضمحل.

وفي هذه الظروف، حاول الناشطون استقبال الأسر النازحة من حمص، وتأمينهم وسط تدخلات قوى الأمن والشبيحة التي تعاملت مع النازحين بشكل انتقاميّ، باعتبارهم أعداء لهم. ورغم ذلك، تمّ استقبال الكثير من هذه الأسر في بيوت تبرع بها أصحابها، أو قبلوا بأجورٍ رمزية؛ وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار تردي الأوضاع الاقتصاديّة والأمنيّة في المنطقة، وأضفنا كلّ هذا إلى ازدياد عدد النازحين، فإن النتيجة كانت صعوبات كبيرة على مستوى استيعاب النازحين الجدد إلى المدينة. بسبب هذه الضغوطات، اضطر ناشطو المدينة إلى استخدام العديد من المدارس لاستقبال الأسر النازحة، كما اضطر النازحون إلى الذهاب إلى الريف القريب من مدينة السلمية، كقرية تل التوت وحي السبيل شرق المدينة، وفي كل الحالات، تمّ استيعاب النازحين الجدد ولو بظروف في غاية المأساوية؛ وبلغ تعداد النازحين من مدينة حمص وريفها إلى مدينة السلمية نحو ١٠ إلى ١٥ ألف نازح.

ج- نازحو الريف الشرقي

في نيسان من عام ٢٠١٣، أطلقت مجموعةٌ من التشكيلات العسكرية المعارضة، وعلى رأسها لواء الإسلام، ولواء الفاروق الإسلامي وغيرها، معركة «الجسد الواحد» في الريف الشرقي من مدينة السلمية، وكان الهدف من هذه المعركة، قطع طريق أوتوستراد سلمية- الرقة الدولي، ومحاولة فك الحصار عن مدينة حمص.

على إثر هذه المعارك الطاحنة بين قوات المعارضة وقوات النظام، تعرضت قرى الريف الشرقي خلال معركة الجسد الواحد إلى قصفٍ عنيفٍ جداً أدى إلى تدمير وحرق أكثر من ١٠ قرى بالكامل، بالإضافة لتدميرٍ جزئيٍّ لأكثر من ١٥ قرية هي أم ميل، الحردانة، أبو حبيلات، أبو حنايا، مسعود، الخريجة، حمادي عمر، سوحا، عكش، أبو دالي، قليب التور، أم تونة، الفان( ). وتمخض عن هذه المعارك حالة نزوحٍ كبيرةٍ لسكان هذه القرى، وبلغ عدد النازحين نحو الأربعين ألفاً، توجهوا إلى ريف إدلب المحرر، وإلى تركيا، وقسمٌ كبيرٌ منهم توجه إلى مدينة السلمية.

انضمت هذه الجموع النازحة إلى باقي النازحين في المدينة، وتمّ استيعابهم عبر مجموعة من القنوات الاجتماعية، منها علاقات القربى والمنظمات الإغاثية وغيرها من الفعاليات المدنية، والتي راحت تنوء تحت ضغط الأعداد المتزايدة للنازحين في المدينة والتي بلغ عددهم التراكمي نحو ٥٠ ألف نازح، وهو رقم يختلف باختلاف المصدر، واختلاف الغايات( ).

١- خلف السرايا الحكومية في المدينة، يوجد ومنذ سنوات طويلة سوق خاص بالحرف يشرف على أغلبه حرفيون من حماه

٢- أثناء تشييع أحد شهداء مدينة السلمية من آل الفاخوري، قامت قوات النظام بإطلاق النار على المشيّعين، وسقط شهيد من بينهم من آل القطريب، بتاريخ ٣٠-٦-٢٠١٢

٣- شهادات حصل عليها الباحث الرئيسي أثناء زيارته إلى مدينة حماه في أواخر حزيران من عام ٢٠١١

٤- حول تفاصيل «مجزرة أطفال الحرية»، راجع: «جمعة أطفال الحرية تشهد مقتل العشرات في أكبر المظاهرات»، سميح الأدهمي، الشبكة العربية العالمية، بتاريخ: ٤ حزيران/يونيو ٢٠١١

٥- المعلومات في هذه الفقرة والفقرات التي تليها، مأخوذة من شهادة غطفان الجرعتلي، أحد الناشطين المدنيين في مدينة السلمية

٦- المعلومات في هذه الفقرة، وفي مواضع عدة لاحقة، مأخوذة من شهادة ماهر إسبر، أحد الناشطين المدنيين في الثورة السورية، وأحد معتقلي الرأي سابقاً في سجون نظام الأسد

٧- من شهادة أحد مؤسسي التنسيقية في مدينة السلمية، ٢٠١٥

٨- راجع: «تلازم الوطني والإنساني»، عبدالله الشعار، جريدة الحياة اللندنية، بتاريخ: ٤ يونيو ٢٠١٢

٩- راجع: «حراك تحت المجهر: ثورة مدينة السلمية»، مجلة Sendian سنديان في ٦ أكتوبر ٢٠١

١٠- من شهادة أحد مؤسسي التنسيقية في مدينة السلمية، مصدر سبق الإشارة إليه

١١- راجع: «مدينة السّلمية بين مطرقة الشبيحة وسندان الأمن»، سلمى الحموي، أخبار الآن، بتاريخ: ١٥-٣-٢٠١٤

١٢- راجع تقرير: «الريف الشرقي لحماة بعد معركة الجسد الواحد»، محمد صافي، عنب بلدي – العدد ٧٥ – الأحد ٢٨-٧-٢٠١٣

١٣- المعلومات في هذه الفقرة مأخوذة من شهادة س.ج (فضل عدم ذكر اسمه)، أحد الناشطين في شعبة الهلال الأحمر في مدينة السلمية

حول المعارضة السورية وواقعها الحالي

عبد الله الحسن

بعد عدة أشهر من الاعتراف بشرعية المجلس الوطني (صورياً) من دول أصدقاء الشعب السوري شهدت على قناة الجزيرة مبارزة حادة بين الدكتور هيثم مناع (هيئة التنسيق الوطنية) والدكتور هشام مروة (المجلس الوطني السوري) في محاولة إظهار دور كل منهما وأهميته لتمثيل الثورة، حينها سمعت لأول مرة عبارات مثل "الأخ الأكبر" و"أم الصبي" والمقصود به الثورة ..

بعد مضي عدة سنوات عدنا اليوم لنشهد ذاك الصراع ولكن بصورة مختلفة على الساحة السورية، فمصر اليوم ليست مصر البارحة، والإخوان المسلمون لم يعودوا مهيمنين على المشهد العربي، لكن الأتراك يملكون من الحظوظ ما لم تملكه مصر في سورية، فما هم فاعلون؟

بدأ الأمر حين قامت الخارجية الروسية بإرسال دعوات شخصية لحضور مؤتمر موسكو١ في إشارة واضحة منها لكسر احتكار التمثيل في صفوف المعارضة وليّ ذراع من يقفون خلفها، وأيضاً التقليل من هيمنة الإخوان المسلمين. تم استغلال الموقف من الخارجية المصرية مباشرة حيث وجّهت دعوات شخصية أيضاً لبعض قوى المعارضة لتجتمع في القاهرة - مستثنية الإخوان المسلمين - وتخرج بورقة واحدة تتسلح بها قبل ذهابها إلى موسكو١.

ثم كان في إطار التحضير لموسكو٢، بدأ قسم مؤثّر من هيئة التنسيق بالإعداد لمؤتمر في القاهرة يجمع من خلاله شخوص المعارضة السورية وبعض تنظيماتهم في محاولة الانقلاب على الائتلاف الوطني وكسر هيمنته، وتم الترويج لجسد معارض جديد بديل عن الائتلاف الوطني و بمشاركة لبعض القوى والتحالفات في داخله، طبعاً بدون دعوة الاخوان المسلمين كما ترغب وتشتهي القيادة العسكرية المصرية العائدة بقوة إلى الساحة العربية وخاصة بعد مساعيها لتحقيق التهدئة في قطاع غزة وتدخلها العسكري في ليبيا، ثم المشاركة القوية في عاصفة حزم ضد جماعة الحوثي في اليمن. لم يستسلم الأتراك ولا الفرنسيين (المستثمرين جداً في الائتلاف الوطني) فحاولوا الحفاظ على الائتلاف ورد الصفعة عبر ترتيب اجتماع في باريس دام يومين فقط بين الائتلافيين المغيبين عن اجتماع القاهرة مع أعضاء من هيئة التنسيق الوطنية المتمرّدين على قيادة الدكتور هيثم مناع، وبالتالي إطلاق فقاعة إعلامية تشير إلى تنسيق المواقف بين الائتلاف الوطني (معارضة الخارج) وهيئة التنسيق الوطنية (معارضة الداخل) بهدف قطع الطريق على الراغبين في اجتماع القاهرة وتقليل أهميته.

في الحقيقة فإن تلك الحركة أدت إلى انقسام حاد في صفوف هيئة التنسيق الوطنية حيث قام ٣٥ عضو من هيئة التنسيق بتقديم استقالة جماعية من الهيئة وتشكيل تيار جديد باسم "قمح» وذلك في محاولة لقلب الطاولة على المجتمعين في باريس وإضعاف تأثير من تبقى في هيئة التنسيق الوطنية أو إنهاء دورهم. وفي خطوة داعمة قام وفد برئاسة الدكتور هيثم مناع بزيارة لموسكو في محاولة منه لإقناع الحكومة الروسية بتأجيل موسكو٢ لما بعد اجتماع القاهرة في محاولة للربط بين ما يحدث في القاهرة وما سيحدث في موسكو لإضفاء نوع من الشرعية على ما هم عازمون القيام به، لكن المحاولة لم تنجح لأن الروس لم يستجيبوا لذلك.

على الجانب الآخر ولتأكيد مكانته، قام الائتلاف الوطني بعمل لقاء تشاوري أول في استنبول، حضره قادة وممثلين عن أهم الفصائل الإسلامية المقاتلة في سورية، وخرجوا في بيان مشترك ولجنة متابعة لتنسيق المواقف والجهود، خاصة بعد الانتصارات التي حققتها تلك الكتائب في الشمال السوري. وآنفاً، لم يكن المؤتمر الصحفي لرئيس تيار بناء الدولة السيد لؤي حسين مع رئيس الائتلاف الوطني السيد خالد خوجة بعيداً عن تلك المنافسة، لأنه في الحقيقة لا قيمة لهذا المؤتمر الصحفي بين رئيسي الكيانين سوى تسويق إعلامي في محاولة لتأكيد الشرعية والوجود لكليهما علماً بأن تيار بناء الدولة المحسوب على المعارضة الداخلية يعاني أصلاً من تصدع وانشقاقات في صفوفه، كما أنه لم يكن يوماً مقرّباً من الائتلاف الوطني أو متوافقاً مع رؤيته باعتباره (معارضة ناعمة وطرية مع النظام) على حد تعبير الناطقين باسم الائتلاف الوطني نفسه. إن الحرب مستعرة بين القاهرة وتركيا وحلفائهما، وخاصة مع وجود كلام عن جنيف٣ أو مؤتمر للمعارضة السورية في السعودية قريباً، وبالتالي تدور الدوائر وتحاك المؤامرات وتكال الاتهامات بين شخوص وتنظيمات المعارضة السورية أو حتى داخل التنظيم نفسه بغاية الحفاظ على التمثيل وخطف الأضواء من الآخر.

بعيداً عن طيبة القلب الزائدة والنوايا الطيبة، وبعيداً عن تمثيل النظام الكاذب، يبقى السؤال المحيّر "من يُمثّل السوريين الآن؟".

نحو مشروع وطني

زكريا السقال

لم يدرِ البوعزيزي أن احتراقه، سيدمر بالإضافة للمدن والقرى، الكثير من المفاهيم والأفكار. حيث لم تستطع مجمل الثقافة والأفكار السائدة تحصين هذه الشعوب التي انفجرت بعواصم الاستبداد العربي، التي لم تمتلك سوى حناجرها وسواعدها، لتصنع الحدث الأبرز بتاريخ المنطقة العربية.

لماذا لم تنجز الجماهير العربية بعواصم الحراك العربي حلمها؟ ومن الذي دار بخلد أدونيس وهو يتفرج على مظاهرات درعا وحمص واللاذقية ودمشق حتى يرجم هذه الحشود بالأصولية لأنها لم تجد سوى بيوت الله لتتجمع بها وتجمع قوتها؟ ومثله مناضل قضى عقدين من السجون ليحسم أمره بالوقوف إلى جانب جلاده الطاغية، وغيره استبطن ذلك فعرج؟ بل إنّ هناك صراع خفي يبرز ويخفو، حيث الجنوب يعتقد أن الثورة ابتدأت في الثامن عشر من آذار، بينما الآخرون يعتقدون أن ١٥ آذار مفجّر الثورة؟ بل ما يثير ويُلفت النظر هو هذا التجرد لدرجة الانحلال أن النخب والسياسين الثوريين الذين لا يأتيهم الباطل أخذوا يصدحون بنظافتهم من العروبة والماركسية والقومية باعتبارها مفاهيم وثقافة سقطت، ولكنهم كانوا عراة لم يرتدوا شيئاً يقيهم عواصف هذا الانفجار!.

اليوم وعلى أبواب العام الخامس، والثورة السورية مازالت تعاني مرارة واقع مظلم دامي يدفع به الشعب السوري دمه وعيشه، قتلاً وتدميراً وتهجيراً، بين نظام مجرم وقوى ظلامية تكفيرية تمارس الإرهاب وتُروّج لهرطقة وسلفية مغرقة.

يبرز السؤال صافعاً وموجوعاً بنفس الوقت: إلى أين؟ لماذا لم تنتصر الثورة بعد أربع سنوات؟.

ورغم أهمية السؤال وإلحاحيته، إلاّ أنّ مُجمل الأجوبة التي تطرح اليوم، ومحاولات الأجوبة مازالت تتمحور حول عناوين عامة وأجوبة مُبتسرة لم تتعرض للواقع السنوات العجاف التي حلت عليه، وماذا فعل قحط الاستبداد وابتسار الأفكار، بعقل النخبة والقوى، وكيف عشّش عجزٌ مزمنٌ لهذه النخبة التي لم تعترف بهزيمتها وهزيمة بنية عقلها، حيث دجنت ثقافتها لتطبعها بواقع هذه الهزيمة .

١. الهزيمة :

المقصود بالهزيمة هنا، هي هزيمة مجمل المسائل المطروحة كي يتطور المجتمع باتجاه الحداثة وإنجاز الكثير من القضايا تضعه بمصاف الدولة الحديثة، بمعنى الاقتصاد، والبنى الاجتماعية. والسيادة والاستقلال بمعنى السياسة.

وهكذا، فإن مُجمل الأفكار والثقافة التي عالجت هذه المسائل لم تنجزها فحسب، بل تحولت لذريعة وأداة لقمع المجتمع بها، فلم يُنجز اقتصادٌ صناعيّ مستقل ولم ينعكس هذا على رفاهية المجتمع بل ازداد فقراً وتهميشاً وفساداً. كما أنّ مجمل الشهادات التي نالها الطلاب لم تُحدث تطوراً على وضع المرأة التي تراجع وضعها وتردت حريتها، كما أن الثقافة انحسرت، وتراجعت الترجمات التي تدفع للاطلاع على تجارب التحرر والحريات، ليتردى المجتمع للأصولية الدينية والتمحور على سكن التاريخ وقصره على أفكار الخلافة، والإمامة والشورى والعقد الشرعي، وحاكمية النص.

قد يقول قائلٌ إن القوى السورية قاومت الاستبداد وواجهت الطاغية ودخلت المعتقلات .

وهذا صحيح، إلاّ أنّ مُجمل هذه القوى كانت تَستعمل نفس الأفكار والثقافة السائدة، وهي نفس الثقافة التي تتلمذ عليها الاستبداد، هذه الثقافة والأفكار هزمت وهُزمت . ولم يُقدّر للنخب السورية نقد خطابها وتجربتها، وقراءة واقعها، ووضع مهام تحررها وذلك بغض النظر عن همروجة سنوات إعلان دمشق وما سبقها من أفكار مجتمع مدني وإنجاز الديمقراطية.

٢. المجتمع:

هل يكفي أن نقول أن هناك هزيمة وأفكار وثقافة سقطت، ونتكئ على هذا فقط؟ أم أن الاستبداد فتك بالمجتمع، ولم يكتفِ بفكفكته وغرس كل أمراض التخلف به، حيث حقن وأسّس لحقن طائفيّ ما أن ينفجر حتى يتفشّى ويَنتشر، الأكثر خطورة هو التفتيت البنيوي بعامة المجتمع، وعندما نقول عامة المجتمع فإننا نقصد بالتحديد تلك النسبة التي ترى نفسها تُناضل من أجل دولة، حيث هناك قوى كثيرة تحتضن أفكار التقية والفرقة الناجية التي تستبطن التاريخ وتريد إعادته وتشعر بمظلومية تاريخية لم يستطع مجتمع الهزيمة تخليصها من مظلوميتها بمواجهتها ونقاش غبنها ووضع حد لهرطقتها، هذه القوى أو الشريحة والتي لم تكن بهذا العدد والكثرة .

لهذا فان المجتمع المفوت والمُخرّب، والذي تفجّر حريةً وكرامةً كان الأوسع والأكثر، ولكنه لم يجد من يُحصنّه ويُؤطّره ويضعه أمام مهامه وأحلامه ليُنْجزها، مجتمعٌ يمتلك

أسباب نهوضه وثورته، لكنه دون رأس ومحرك ينقله لتحرره وكرامته، كما هتف وصرخ.

٣. سقوط الأيديولوجيا:

الأيديولوجيا، هي مجموعة من القيم والأفكار والمبادئ المتماسكة ظاهرياً والتي تشكل معتقداً سلوكيّاً للخلاص والوصول، وهنا الخلاص والوصول يعنيان، تحقيق الخير والحرية والسعادة.

وبهذا فإن الكثير من المجتمعات اخترعت ايدولوجيا خلاصها وبنيها كي تتخلص وتصل، من النيرفانا والكونفوشسية، إلى الدين، ومن ثم القومية، و .الماركسية وأفكار ومعتقدات كثيرة

قد يكون مفهوم الأيديولوجيا من المفاهيم المعقدة حيث أن سقوطها هو تحرّر، إلاّ أنّ الوقائع تُشير وتحديداً بتلك الدول التي لم تُنجز نهوضها وبناء أسس تعايشها، وضعتها بحالة من التفكك والتذرّر، بمواجهة طريق خلاصها، كأننا أمام حتمية تقول: عليك بصنع دينك كي تصل لتحررك. وهنا نرى مفارقة جلية بأن المجتمعات المفوتة التي مازالت تُعاني غبن الواقع وظلمه وفساده، هي المجتمعات التي تفتقر لايديولوجيا خلاصها، وحيث الاديولوجيا شيءٌ منتجٌ ومصنّع كما السلع والمواد ينطبق عليه القدم والصلاحية والتلف، إلاّ أن إسقاطها دون حصانة وحاضنة، يُعطي تفككاً وتذرّراً بمعنى أن أيّ لقاح للتحرر من الايديولوجيا بحاجة لجسد مُحصّن وقائم على أسس قادرة على تحمل جدل التفكك والاندثار.

لهذا فإن المجتمع العربي، والذي صنع الربيع العربي، جاء وهو يفتقد لهذا الدين بمعنى الجسد المتماسك والمؤمن بأن خلاصه سيكون باعتناق هذا الدين المُحصّن بمبشريه ورسله القادرين على رسمه وبنائه والتضحية من أجله.

وعليه فإن هذه الثورات المتعثرة لم تجد من يمارس فعل التبشير والتضحيه سوى ايديولوجيا مفوته عاجزة مهرطقة، غير قادرة على رسم خلاص بمستقبل قابل للخلاص والتحرر والبناء. المقصود هنا الإسلامويون، بمواجهة تفكك وتذرر المجتمع، المحقون بالكثير من عوامل سقوطه وتعثره، حيث الأفكار الجديدة لم تُشكل دينها ورسلها وفدائي نشرها.

إن سقوط جداربرلين، لم يعنِ فقط سقوط الاتحاد السوفيتي، هذا الفيل المشلول، والمليء بالأمراض، بل سقط على إثره إنسان فقد الكثير من عوامل خلاصه، لهذا انتشرت هذه الفوضى الدامية والتي مازالت تتفشى قتلاً وتدميراً وتسليعاً للإنسان.

وكان أهم عوارضها وأعراضها:

١- تفكك المجتمعات وتذرر بناها بطريقة مرعبة، حيث ضُربت الكثير من الضوابط وتحلّلت كثيرٌ من المفاهيم كان التفكير بها يُشكّل جرماً محرماً، إذ أصبحت تمارس ويجهر بها: تابو.

٢ . المصالحة الفجائية وغير المعروفة مع كل الجهات التي كانت تشكل عدواً طبقياً، وقومياً، وإثنياً.

٣ . اعتماد الفرد والفردية كحل والاتكاء على الذات للخلاص.

٤ . ارتداء أفكار للخلاص باستلاب مرضي، والابتعاد عن التشخيص ودراسة وقائع المنشأ والتربة والمناخ.

٣. كثير من البرامج، قليل من الأيمان:

اليوم، والسوريون يعانون هذا الإعصار الذي يحاصرهم قتلاً وتدميراً وتهجيراً، حيث تتصارع على أرضهم كثير من الإرادات الدولية والإقليمية لترسم مستقبل وطنهم ودوره على الخارطة الجغرافية، تتفجر كثير من الأسئلة، ويتنطح كثير من الطيبين والخيرين للإجابة عن واقعهم ومستقبلهم، وتكثر الأجوبة المبتسرة والمشروعة بحالة هذا الفراغ القاتل.

وحيث أن مشروعية السؤال، لاتُعطي أحقية التباهي بالجواب مالم يتحصن هذا الجواب بقراءة الازمة، بعقل جديد، ولغة جديدة، والأهم هو هذا السلوك الإيماني الجديد، سلوك يحدد أن المُبشرين الجدد عليهم اكتشاف خبزهم من أرضهم، وعلاج أمراضهم من أعشابهم، وبهذا فان التصدّي لهذا الواقع عليه أن يبحث بأرضه عن وسائط تصديه، فحصها وتنقيتها وتنظيمها ودفعها إلى زراعة جديدة قابلة للنمو والعطاء. ١

كي لا تبقى هذه الأفكار معجمة، فإن دراسة أخرى مقاربة للأفكار التي يجب وضعها بمخبر الواقع وتنقيتها، من مفهوم الوطن للمواطنة وما بينهما من إشكالات، وما تحتاج من علاجات قد يكون محور آخر يوضع قيد التأمل والبحث.

معوقات نشر الديمقراطية ومعوقات الحل السلمي في المشهد السوري ٢/٢

وائل واصل – محامي.. مركز المواطنة المتساوية

توطئة:

نشرنا في العدد الماضي الجزء الأول من قراءة الأستاذ وائل واصل لمعوقات نشر الديمقراطية ومعوقات الحل السّلمي في المشهد السوري، وقد أوضح الأستاذ واصل أن هناك أربع معوقات في وجه نشر الديمقراطية في سورية، وهي برأيه:

أولاً: معوقات متعلقة بالنظام الحاكم ورموزه ورجالات الأمن.

ثانياً: معوقات معلقة بالشعب ذاته

ثالثاً: معوقات متعلقة بالقوى المعارضة

رابعاً: معوقات دولية منها إقليمية إسرائيلية، وإيرانية، وعربية، ومنها دولية أمريكية

وكان الأستاذ وائل قد قدم في الجزء الأول من قراءته رؤيته للمعوقات الثلاث الأولى، وفي هذا العدد يتابع شرحه للمعوق الرابع والأخير.

رابعاً: معوقات دولية منها إقليمية إسرائيلية، وإيرانية، وعربية، ومنها دولية أمريكية

أ.المعوقات الإيرانية

إيران دولة باتت مهمة في لعبة التوازن العالمي ولها دور تؤديه وعليها دور، وهي مع الوقت تحاول وتنشد تعاظم دورها في المنطقة على حساب الدور المفروض عليها، ولكن للأسف يوجد في إيران رموز ما زالوا يعيشون أحلام زعماء القرون الغابرة، أحلام الإمبراطوريات الواسعة وامتداد السلطة والنفوذ المباشر، تماماً مثل دعاة عودة الخلافة أو دعاة الإسلام السياسي، هذا النفوذ المباشر صار ماضياً منسياً بالنسبة إلى الدول المتحضرة والمتقدمة التي انتقلت لمد نفوذها في استعمار العالم عبر الاقتصاد والتجارة وأساليبها، وبوسائل الاتصال والتواصل وقوة الثقافة والحرية الواعية، وما قوة هذه الدول العسكرية إلاّ لمن يريد استعمال القوة العسكرية ضدها ويهدد فعلياً مصالح حقيقية لها، ولم يعد يعنِ العالم المتحضر موضوع التفاخر إعلامياً في اتساع النفوذ المباشر والاحتلال المباشر كما هو حال النفوذ الإيراني الواهي والذي لا يعود بأي قيمة مضافة على الشعب الإيراني.

وإيران في سورية والعراق ولبنان تُنشد نفوذاً مباشراً أشبه باحتلال، قد صار من أشكال النفوذ القديمة البالية المتخلفة والمرفوضة، لا يمكن ضمان استمرارها إلاّ بقوة الحديد والنار ورضىً عالمي على ذلك لن يتوافر دائماً.

إن احتلال هذه الدول بشكل مباشر من خلال دعم أنظمة السلطات الحاكمة المرتبطة بها بشتى أشكال الدعم لن يعود بالمصلحة الحقيقة على إيران، لا على المدى المتوسط ولا البعيد ولا حتى القريب، بل ما هو إلا استعراض شكلي وهمي إعلامي يكلف إيران كثيراً، اقتصادياً وعسكرياً ومالياً، فأيّ مصلحة تعود على الشعب الإيراني من نفوذ كهذا؟ هل تشييع بعض الناس هو مصلحة حقيقية؟ قد يعني امتداد هكذا نفوذ شيئاً لرموز الحكم في إيران ولكن ماذا يعني للشعب الإيراني اقتصادياً واجتماعياً؟ ما الفائدة التي تجنيها إيران بتوجّه رموزها أو حكومتها في استعداء شعوب المنطقة وامتداد نفوذها الآني وغير المشروع والذي لن يستمر طويلاً.

هل تَوجّه إيران وموقفها الحالي في دول العراق وسورية ولبنان هو لأجل تأدية دورها العالمي الموكل لها، والمتمثل في تفعيل صراع عربي شيعي يكون بديلاً عن صراع عربي إسرائيلي، ويكون سبباً لاستمرار تفعيل وازدهار تجارة السلاح في المنطقة واستمرار الرعاية الدولية والنفوذ الدولي للأنظمة الحاكمة في المنطقة، لتبقى مكانها في السلطة وتستمر بالمقابل بتأدية دورها في اللعبة الدولية ضد المصلحة الوطنية وإرادة ومصلحة شعوب المنطقة.

وفي ضوء ذلك كيف يمكن أن نضمن لرموز النظام في إيران استقرار بلدهم وحكمهم إذا تراجع نفوذهم المباشر في دول العراق وسورية ولبنان، أو إذا قبلوا بنشر الديمقراطية في هذه الدول ورفعوا يد الوصاية عنها، أليس من الخطر أن يسمح النظام الإيراني بشيء من الديمقراطية الحقيقية في دول الجوار، فهذه الديمقراطية ستنتقل إلى بلاده سريعاً، وطبعاً تتقاسم أنظمة الخليج مع النظام الإيراني فكرة محاربة الديمقراطية في المنطقة وفي بلادهم، وتدعمهم إسرائيل في ذلك طبعاً.

إن النظام الإيراني كما النظام السوري قبل الثورة في سورية يبدو قوياً متماسكاً، ولكن الحقيقة أنه يزداد هشاشة وضعفاً لأنه يبتعد عن متطلبات التطور والانفتاح الإنساني والسياسي والاجتماعي، إن الشعب الإيراني شعب ذا نفسية وذهنية رفيعة متفاعل ينشد التطور والحداثة، ومع الوقت سيزداد بطش النظام في إيران بشكل مضطرد مع زيادة الحاجة للانفتاح على العالم، هذا الانفتاح الذي يهدد استقرار النظام الإسلامي الإيراني لصالح الدولة المدنية الحديثة، ولذلك يكون ضرورياً بدء البحث عن آلية تبقي للنظام الإيراني الإسلامي بقيةً ما.

لا بد للنظام الحاكم في إيران في الفترة القريبة الآتية أن ينسحب من المشهد السوري بنوع من الهدوء وبأقل تكلفة وخسارة ممكنة، وأن يعمل لإعادة دمجه بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمنطقة وتأمين وضمان مستقبل ما له في إيران وخارجها، وإن كلّفه ذلك بعض الخسارات أو التنازلات في إيران.

ب.المعوقات العربية

طبعاً لا يناسب الحكام العرب امتداد النفوذ

الشيعي، ولكن أيضاً لا يناسبها أكثر انتشار الديمقراطية في المنطقة، ونهوض دول مدنية ديمقراطية مؤثرة كسورية، وهذه الأنظمة الحاكمة تعلم تماماً أن المجتمع السوري مجتمع بغالبيته يريد دولة مدنية ويريد ديمقراطية حقيقية، ويريد الفصل بين السلطات، وفي سورية ترغب أنظمة الحكم العربية بسلطة دكتاتورية تحل محل نظام الأسد كي تصطف معها بمواجهة النظام الإيراني، أو على الأقل لا تصطف مع النظام الإيراني ضدها، وهي لم ولا ولن تريد الانتقال بسورية إلى الديمقراطية، وفي أحسن الأحوال ترى هذه الأنظمة أنه إذا كان من الممكن الانتقال في سورية فإلى دولة شبه مدنية تابعة ومحكومة بالمال العربي، فهنا يكون من الممكن لهذه الأنظمة دعم هذا الانتقال المحدود إلى الديمقراطية. وحيث أن الدولة المدنية الديمقراطية الحقيقية هي ما يشكل مآل الصراع الدائر في سورية، لذلك عملت وتعمل الأنظمة الحاكمة العربية والغربية على زرع واستنهاض تيارات أو أحزاب مرتبطة بها أوتيارات وأحزاب متشددة تقودها استخباراتها التي بدورها ترتبط بالغرب، بحيث تكون مهمة هذه الأحزاب والتيارات هي الضغط على أي حكم أو نظام قادم في سورية لمراعاة مصالح تلك الأنظمة، ونعلم أن أجهزة الاستخبارات هذه كما كل استخبارات العالم تعمل بالغالب دون توجيه مباشر من السلطة السياسية في هكذا قضايا، وإنما تعمل بحسب ما تعتقد انه يخدم توجه السلطة الحاكمة واستراتيجيتها ولو جاءتها أحيانا إيحاءات من السلطة.

وهكذا يمكن التأثيروالضغط على أي حكومة ونظام قادم في سورية عبر هذه التيارات والأحزاب، لضمان مراعاة مصلحة هذه الأنظمة التي ترتبط بالنظام العالمي، وهذه الأنظمة قامت وتقوم أصلاً على الاستيلاء على الحكم ومعارضة أي حركة ديمقراطية حقيقية، والمؤسف استمرار دعم الغرب لهذه الأنظمة بذات الأسلوب، وعجزه عن إيجاد آلية جديدة لحكم هذه البلاد آلية يتحقق فيها نوعاً من الحرية والديمقراطية مع الإبقاء على مصالح هذا الغرب.

دبابة لجند الأقصى على أوتستراد دمشق - حلب

ومن هذا الموقف من الديمقراطية تتساءل الأنظمة الحاكمة في المنطقة: ماذا سيكون موقف النظام القادم أو البديل في سورية من التيارات والحركات المعارضة في بلدان الخليج، هل سيُسمح لها بالعمل في سورية؟ ثم ما مدى التأثير السلبي لتحقيق الحرية والديمقراطية في سورية على هذه التيارات والحركات التحررية واستنهاضها في بلدان هذه الأنظمة الحاكمة في الخليج؟.

ومن هنا يجب أن يكون أي حل أو انتقال إلى الديمقراطية في سورية قد راعى مخاوف هذه الأنظمة. وهذا يمكن تحقيقه وتحقيق التوازن والتوافق بين مصلحة الشعب السوري ورموزه ومصلحة الأنظمة الحاكمة العربية ومصلحة الغرب.

ج.المعوقات الأمريكية

من المؤكد أن مصالح الولايات المتحدة تتماهى مع مصالح الأنظمة الحاكمة في المنطقة، وتتماهى أيضاً مع المصلحة الإسرائيلية، فمن جهة إن انتشار الديمقراطية الحقيقية في دول المنطقة، ولو في دولة واحدة مؤثرة مثل سورية سيعيق على المدى المتوسط والبعيد ويحدّ من نفوذ الولايات المتحدة على دول المنطقة، ثم إن انتشار الديمقراطية سيضع رويداً رويداً حداً للعب على متناقضات المنطقة الدينية والقومية (صراع سني شعي، عربي إيراني، كردي عربي إيراني)، وبالتالي ستبتعد هذه الدول نوعاً ما عن سباق التسلح ما سيؤدي لتراجع تجارة السلاح، وسيزداد ويتسارع نمو هذه الدول واعتمادها على نفسها، ويزداد طلبها وتأكيده على الندية في علاقاتها مع غيرها، وسيتسع دورها وحجمها السياسي والاقتصادي التنافسي، وهذا لا يخدم ما استقر عليه توزع الأدوار والمصالح الدولية في المنطقة.

وهكذا يمكن القول بالظاهر إن أي ديمقراطية حقيقية في الشرق ستضر بمصالح الغرب وبالأخص الولايات المتحدة وإسرائيل والأنظمة الحاكمة، ما لم تلحظ هذه الديمقراطيات الناشئة المصالح الاستراتيجية لهذه الدول (الولايات المتحدة والغرب) وتعترف بها وتتبناها بما يتوافق مع المصلحة الوطنية، ولأجل ذلك يجب تبني أسلوب ونظام جديد لنشر الديمقراطية في دول الشرق أو الدول النامية يضمن توازن المصالح القوى الدولية ومصلحة الشعوب بأن نؤمن لها فسحة واسعةً من الديمقراطية تكون مجالاً لتقدمها ولحرية العمل السياسي والإعلامي والاقتصادي..الخ، ويضمن بنفس الوقت الاستقرار الأمني والحريات العامة، ويضمن المصالح الاستراتيجية لقوى الغرب المسيطرة وخاصةً الولايات الأمريكية.

ومن جهة أخرى ستشكل الديمقراطية خطراً استراتيجياً على مصالح الولايات والأنظمة وإسرائيل والشعب أيضاً، ولأن هناك من يعتقد أن الديمقراطية بمعنى حكم الأكثرية والعدالة والحرية والمساواة والمفاهيم الإنسانية ستضر بمصالحه كما أسلفنا أعلاه، وأنها قد تأتي بالمتشددين المتطرفين أو غير المؤمنين بفكرة المواطنة كنظام اجتماعي وسياسي عادل، ولديه فهم متفرد عن الديمقراطية هو أنها (حكم الأكثرية) فقط دون المفاهيم الأخرى مثل المواطنة والمساواة واحترام شرعة حقوق الإنسان كاملة، بمعنى أنها قد تأتي بمن لا يؤمن بالآخر والتساوي معه، ما يسبب انحرافاً عن الغاية

من الديمقراطية بمفاهيمها المتصلة بحقوق الإنسان والعدالة والمساواة وغيرها، كما أنها قد تكون مجالاً لاحتمال ظهور أكثرية قد تكون متشددة تضطهد الأقليات، وكما سيكون من الصعب جداً تطبيق الديمقراطية في دولة دون أن تتأثر دول مجاورة بهذه الديمقراطية، وأن انتشارها يمكن أن يكون ضد مصالح الغرب، لذلك كله لا يمكن السماح بإطلاق الديمقراطية بشكل كامل ومباشر، بل يجب وضع استراتيجية وآلية أو نظام عالمي جديد لنشر الديمقراطية، ويجب توجيه ومراقبة ممارسته عند تطبيقه في مراحله الأولى، مثلما يجب مراقبة المراهق حتى يجتاز مرحلة طيشه ومراهقته وتستقر شخصيته، أي حتى تستقر الاستراتيجية والنظام العالمي الجديد.

بمعنى آخر: مهم جداً أن نسمح بالديمقراطيات الناشئة ونحميها وفق آلية تحقق توازنات مطلوبة وتراعي مصالح الجميع وتحفظ السلام العالمي، ولكن هذه الحماية يجب أن تكون من نفس الشعب والدولة وليس من خارجهما كما كانت عليه حقبة عصبة الأمم والانتدابات أو حديثا الدكتاتوريات، ويكون هذا كله من خلال مؤازرة ودعم أقطاب الحكومة العالمية لهذه السلطات والديمقراطيات الناشئة والذي ستربطها مع هذه الدول مصالح استراتيجية وشراكات حقيقية، وأفترض هذا الشريك بالنسبة إلى سورية هو الولايات المتحدة الأمريكية.

وهذا أيضاً يمكن تحقيقه بدعم الانتقال إلى الديمقراطية في سورية مع الإبقاء على مصالح الولايات، بل وتنامي استراتيجياً.

د. المعوقات الإسرائيلية

دائما كانت إسرائيل ومن ورائها الصهيونية تسوّق أنها الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق، وهي الوحيدة التي تحترم حقوق الإنسان، ودائماً كان باستطاعة إسرائيل تسويق نفسها على أنها دولة محاطة بدول وشعوب همجية وحشية لا تحترم حقوق الإنسان وتعتدي أو ستعتدي على إسرائيل متى تسنّى لها ذلك، وتسوّق أيضاً أن ما تعدّه همجية الدول المحيطة بها يؤثر وسيؤثر على كل العالم وعلى النظام العالمي ما لم يتم التحكم بقرار هذه الدول السياسي والعسكري والاقتصادي حتى ومصادرته بأي شكل كان، بشكل مباشر أم غير مباشر، بفرض واقع تبادل المصالح أو تقاطع المصالح مع الأنظمة الحاكمة في هذه الدول دونما اتفاق علني على ذلك، ولا بد من حماية الأنظمة الحاكمة في هذه الدول التي تُعلي مصلحتها الخاصة على مصلحة أوطانها وهي بالحقيقة أنظمة غير شعبوية، فليس لها قاعدة شعبية بالمعنى الحقيقي كما سورية وإيران والأردن والخليج، أنظمة دول تحكم بالنار والحديد.

لذلك لن يكون من مصلحة إسرائيل وجود دولة أو دول ديمقراطية مدنية في جوارها، دول تكتسب الاحترام العالمي الحقيقي وتطالب بحقوقها بشكل جدي حقيقي مُؤيّد دولياً، دول تستطيع أن تملك القوة الكافية لإدارة مصالحها والدفاع عنها، وهذا يعني استراتيجياً بدء العد العكسي لعنصرية وتمرد وأحلام وتفوق هذا الكيان الصهيوني واضمحلال دوره العالمي في المنطقة.

وإسرائيل في سبيل ذلك أيضاً تختار الاعتماد على شريك استراتيجي واحد بعيد جداً عن حدودها وهذا خطأ استراتيجي، إذ عليها أن تبحث عن شريك إضافي قريب يشكل عمقاً وامتداداً وداعماً نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنياً لها، لذلك من مصلحتها الاعتراف لهذا الشريك بمصالحه ودعمه أيضا، ثم إن حقيقة «أن مصلحة إسرائيل - كما تعتقد هي- هي دائما بالتحالف الاستراتيجي العميق مع البلد الأقوى في هذا العالم، تستفيد من قوته العسكرية والاقتصادية ويستفيد من قوتها المالية والعسكرية وانتشارها الاقتصادي المؤثر»، هذه الحقيقة لا تلغي حقيقة أخرى هي أن شعوب العالم كله تشعر بعدم الارتياح وعدم القبول تجاه سلوك وفكر اصهاينة في العالم، ذلك كله بسبب ما يحملونه من فكر متعالي أناني رافض للآخر مهما كانت جنسيته.

والحقيقة التي يجب أن تهم إسرائيل وأن لا تغيب عن ذهن السوريين في نفس الوقت، هي أن مصير إسرائيل كدولة عنصرية بجانب التحديات الاستراتيجية التي تواجهها، بلا شك سيكون مصيرها الانغلاق والضمور والزوال كدور في العالم وكدولة وكيان سلماً كان ذلك أم حرباً، لذلك لا خيار لها إلا التخلي عن عنصريتها وأن تسعى لترسيخ وجودها كما هي الآن دولة مدنية لأطول فترة ممكنة، والسبيل إلى ذلك سيكون مكلف ولكنه ضروري وهو عن طريق تأمين السلام والود والشراكة الندية مع شعوب المنطقة، وهذا لن يكون مجاناً حيث لابد لها من الشراكة الحقيقية مع سورية ومع سورية بالذات.

لذلك لابد من انسحابها من الجولان والاعتراف بدولة فلسطينية منزوعة السلاح تابعة عسكرياً لسورية، كما يجب بطريقة ما تلزيم الأردن ولبنان عسكرياً لسورية، للتمكن من التعامل مع قيادة عسكرية أمنية واحدة وقوية، ويمكن أن يكون ذلك عن طريق دعم اتحاد هذه الدول فيدرالياً مع سورية مثلاً.

وفي المقابل تحصل إسرائيل على اتفاق عسكري أمني ودفاع مشترك مع (اتحاد دول سورية المكون من سورية والأردن ولبنان وفلسطين) وحل مشكلة حق العودة، والسماح لها بالاندماج والتفاعل في المنطقة في شتى المجالات، وإنشاء مقاطعة يهودية تشبه الفاتيكان على مساحة محددة ضمن دولة إسرائيل القادمة، لكي تُبقي على الشخصية اليهودية الخالصة، ذلك لأنه مع مرور الزمن والتقدم الحضاري والتقني في المنطقة والعالم المحيط والتغير في الديموغرافيا ومع زيادة التفاعل مع غيرها ستتخلص إسرائيل وأية دولة دينية عنصرية من عنصريتها وطابعها المنعزل، وهذه التصور هو أفضل ما يمكن تصوره لضمان بقاء إسرائيل كدولة مدنية متعايشة ومتفاعلة مع محيطها ويتفاعل شعبها مع شعوب المنطقة كشعب أصيل، وهذا الفكر هو الذي يجب تبنيه يهودياً حول العالم، كما أن هذا الفكر هو الذي سيؤمن الاستقرار الأمني والاجتماعي والنفسي ليهود العالم في بلدانهم، ويزيد تقبلهم لدى شعوب تلك البلدان، وهذا النهج هو خير لشعوب المنطقة من استمرار هاجس القتل والتدمير والحرب الذي لن تكون نتيجتها إلا الويلات على الجميع. وهذا يمكن معالجته بطريقة تتقاطع فيها مصالح شعوب المنطقة بما فيها الشعب الإسرائيلي.

البساطة المستحيلة قراءة لـ «فراس الضمّان»

محمد الجرف

دفاعاً عن النّفس..
أرسمُ بالسكّين
دفاعاً عن سوريا..
أكتبُ القصائدَ على الجدران
دفاعاً عن الله..
أحبّكِ !!.

هكذا يبدأ فراس الضمان مجموعته الشعرية الأولى «بائع الكستناء الأدْرَد» .الصادرة عن دار التكوين، العام ٢٠١٤ لاتحمل قصيدته عنواناً، يترك لنا فراغاً بين قوسين طالباً منّا تعبئته في محاولة منه لإجبارنا على الانغماس أكثر في القصيدة.

إذاً علينا نحن يقع عاتق وضع «كيْنونة» للنصّ بعد أن اكتفى هو بخلقه. ولكن، أحقاً هذه وظيفة القارئ؟، يقول كانط إنّ للعنوان وظيفتيْن رئيستيْن: وظيفةٌ دلالية، ووظيفةٌ جمالية.

دلالية يتحدد بها المعنى بكيف ولماذا، وعلاقة هذا المعنى بباقي النصّ. وجمالية يُعبّر عنها دريدا بقوله: «العنوان يعلو النصّ ويمنحه النّور اللازم لتتبعه»، بالمختصر إذاً، يُشكّل العنوان بؤرة النصّ، وحامله وهذا ما يحرمنا منه فراس!. فعنونة النصّ تعني التحديد، وكلّ تحديد سلب، وكلّ سلب إقصاء، وهذا ما عناه فراس في محادثة بيننا: «من ناحيتي أرى أنّ عنوان القصيدة يسجنها، لذا أحببت أن تكون جميع القصائد بلا عنوان».

لنعد ثانية إلى قراءة القصيدة:

دفاعاً عن النّفس..
أرسمُ بالسكّين

يرسم فراس جيرنيكاه بالسكين «دفاعاً عن النفس أرسم بالسكّين» مستخدماً تقنية الثنائيات المتوازية – التقنية :الأثيرة للشعراء!- ففي مقابل الموت يرسم الموت // الرسم (دفاعاً عن النفس أرسم بالسكين..)

وفي مقابل الدماريكتب:

الدمار // الشعر (دفاعاً عن سوريا
أكتب القصائد على الجدران..)

ويستبدل طقس الصلاة بالحب:

(العبادة // الحبّ) ودفاعاً عن الله أحبّك

يمضي الشاعرفي قصيدته التالية من محيطه إلى ذاته أكثر، عبرجملٍ ورموز بسيطة غيرمتكلفة:

أخيراً..
سيعودُ كلُّ شيءٍ إلى مكانِه
مستمراً في ثنائياتٍ مشحونة بالأمل والإحباط (السنونوة // الطعنة):
السنونوةُ..
إلى أميرها السعيد
الطعنةُ..
إلى عشّها الدافئ أعلى الظَّهر

التكرار تقنيةٌ أُخرى يستخدمها فراس، فمن وظائف التكرار التوكيد والعناية بالمفردة، إذْ بالتوكيد ينضبط المعنى، وبه يتصاعد الإيقاع، وبه يهمد:

أحِبُّ ظلالي..
كلّ ظلالي .
لكنَّ أقربَها إلى قلبي..
ذاك الذي..
يرسمهُ المصباحُ الخافتُ
أمام بيتكِ..
بيتكِ المهجور !!.

في هذا المقطع يتجلى ما أسميْتُه «البساطة المستحيلة»: سردٌ لحكاية ووصفٌ لحدث، تتابع لأحداثٍ وأفعال، انتقال من هامش إلى متن:

على صدر الطاولةِ العتيقةِ السمراء
وقبل أن يلفظَ بؤبؤيَ الأحمر
دمعتَهُ الرمادية الأخيرة
وقبل أن يتركني آخرُ أصدقائي
ويقترب النادلُ منّي..
ويهزّني من كتفي..
فأهوي!!
وقبل أن أسقطَ
أسقط للمرّةِ الأولى في حياتي .
وتخرج من أكمامي..
الأرانبُ البيضاء
سأكون قد كتبتُ لكِ
هذه القصيدة!!.

ترقبٌ، فالتمهيد للحدث يبدأ بجملة (قبل أن..) في بداية كلّ سطر من القصيدة، وانفعالٌ بين السطور يتضح من خلال اختيار الشاعر لأفعال (يلفظ، يتركني، يهزني فأهوي..) (وموتٌ) تخرج من أكمامي الأرانب البيضاء هذه التركيبة (ترقبّ- انفعال- موت) تطغى تقريباً على معظم قصائد المجموعة لتُعطي الانطباع بقدرة «البساطة المستحيلة» على تحويل أي قول يوميّ إلى شعر!

لا يغيب رياض الصالح حسين (رائد البساطة المستحيلة في الشعر)، روحه ترفرف على صفحات المجموعة.

يقول فراس:

معاً..
يسيرُكلٌّ مِنَّا في اتجاه
معاً..
نَتسَكَّعُ في مدينتَيْنِ مُختلفتَين
معاً..
نَنزِفُ على ضفَّتَين
معاً..
ننامُ مع غريبَين
معاً..
نَرفعُ رأسَينا
أمامَ عَلَمَيْنِ مُختَلفَين.
معاً..
نخفُقُ في كنيستَين

ويقول رياض الصالح الحسين:

اثنان
كانا اثنين
يمشيان معاً
في الشوارع المهجورة
منه تفوح رائحة التبغ
ومنها تتساقط أوراق الليمون
وعند المنعطف
كنجمتين
سقطا
كانا اثنين
أحدهما يغني
والآخر يحب الإصغاء.

عند فراس (وعند الصالح الحسين قبله) تنتقل اللغة من وظيفتها التواصلية إلى وظيفتها الشعرية عبر تراكم الدلالات وتضادها، تراكم هشّ كالقصيدة نفسها وكالواقع الذي أنتج القصيدة، فالشعر لم يعد يكتفي بالوصف والردح والندب، لكنه في نفس الوقت ليس صاحب رسالة، هذا الموقف القلق يستمد كينونته من فعالية الرموز التي يتردد صداها في أرجاء المجموعة: (الزجاجة، الظلال، السقوط، النّدم، المغيب، والبكاء..)، هو لا يصف واقعاً، ولا يُردّد حكمةً كلّ ما يفعله مترددا بين لذته ويأسه، بين أمله وانكساره: يُحدثنا عن هدوئه في انتظار موته!

في مهجعنا مهاجر

خليفة الخضر

كالدمية، إن ضحك ضحكنا لضحكته الغريبة، وإن قال كلمةً بالعامية نظرنا في عيون بعضا البعض ابتهاجا لأنه تعلم لغتنا، ولكننا من وجهة نظره مرتدون!.

بينما كنا نلعب لعبة «مين المفتش أنا المفتش طلعلي الحرامي»، وهي لعبةٌ يجتمع فيها أكثر من شخص، يتبادلون الأدوار بعد رمي مجموعة أوراقٍ على الأرض بشكلٍ عشوائي ويسحب كلُّ لاعبٍ ورقة، ومن كانت ورقته الملك يطلب قائلًا: «مين المفتش ؟»، يقول من وجد ورقة المفتش: (أنا المفتش)، عندها يقول (الملك): «طلعلي الحرامي»، فإن عرف المفتش من يحمل الورقة التي تحمل الحرامي، أمر الملكُ الجلادَ -وهو لاعبٌ ورقته مكتوب عليها (جلاد)- بضرب الحرامي، ويتدخل من يحمل ورقة الوزير بتخفيض الضربات أو تقويتها.

وبينما نلعب فُتح باب المهجع وارتمى رجلٌ أشقر ذو لحيةٍ شعثاء، جسده يذرف دماً غير قادرٍ على القيام. هرعنا لمساعدته، وليس لأنه غريب (غير سوري)، لا بل لأننا اعتدنا أن نلتف حول كل سجينٍ جديد يأتي، ونساعده بتغير ملابسه والتخفيف عنه منتظرين أية كلمةٍ منه، «ماذا يحدث في العالم الخارجي؟! هل فعلاً (الدولة) أخدت مارع؟! صحيح في عفو عن المساجين على العيد؟»، يأمرنا أمير المهجع بتركه حتى يستريح، ويأتي سجينٌ آخر ذو خبرةٍ في حال كان السجين الجديد معذباً (مشبوحاً) على البلنكو، يقوم بتمسيد يديه ورجليه، ويأتي سجينٌ آخر يحمل كيساً فيه حبات (دوبران) وحقن (ديكلون) ودواء سكري، ويعالجه!

لم يستطع أبو عبد الله القوقازي التكلم، وأيضاً لم يستطع النهوض إلى الحمام، فكان فادي -وهو سجينٌ من لواء أويس القرني-، وأبو أحمد من أحرار الشام بالاعتناء به وأخذه إلى الحمام وحمله، وحتى تغسيله وغسل قضيبه وتنظيف القذرات ومسح الدم النازف من جسده وتدليك مفاصله لتخفيف آلام الشبح.

نحن «ولاد المهجع»، أو هكذا يُطلق علينا لصغر سننا، كنا نجتمع حوله وتنتظره حتى يفيق من نومه، وعندها أطلب من عبد الحي: «اذهب وأخبر أبو أحمد أحرار أن أبو عبد الله فاق من نومه»، وكأنه ابن أحدنا، نتداور على خدمته، وأتولى أنا قَصّ القصص والحكايات عليه، والتي كانت أغلبها من نسج الخيال، لا لشيءٍ، بل لتضييع الوقت، وليقضي الله أمراً كان مفعولا.

أبو كريم الرجل المسن (كبيرنا)، الذي جعلنا له زوايةً، وأجلسناه فيها تحت عبارة (روحي فداكي يا بلدي يا الباب)، يحل مشاكلنا ونزاعاتنا، ونرضى بحكمه أياً كان الحكم، بدوري كنت المتحدث باسم المكتب الإعلامي الخاص به، ولا تُحلُّ قضيةٌ أو مشاجرة إلا وأنا موجودٌ أوثّق، وبدون أية كلمة أشار بيده متعجباً: من هذا؟؟ -يقصد أبو عبد الله القوقازي-، فأخبرته: «هذا جاي من القوقاز، هي تحت روسيا، هي فعلياً تابعة لروسيا، جاي علينا تا يجاهد»، أبو كريم: «هلىء ترك كل العاهرات بروسيا والشيوعية الكافرة وإجا لعنا؟ مافي طريق للجنة إلا من هون؟ مصايبنا كلا من ورا هدول الأجانب».

نسيت أن أقول بأن تهمة أبو كريم أنه قال لابنه الذي التحق بصفوف التنظيم: «إذا تزوجتَ مهاجرةً راح أنام معها قبلك، ولاّ لا إنت إبني ولا أنا أبوك»، يواصل أبو كريم: «ما قلكون شو تهمتو؟»، فأجيبه:» لحد الآن لا، ما عم يرد، وكل ما نقلو ،شو تهمتك بيقول خير إن شاء الله لا تصدقوه كذاب هاد».

بعد يومين تعافى أبو عبد الله، وأصبح يمشي ويتفتل بيننا، ونحن ننظر إليه بدهشةٍ وكأنه دمية، كم ضحكنا عندما قال كلمة (كويس).١

وعندما سألنا عن التهم الموجهة إلينا: «ما هي تهمتك أنت وأنت»، جاءته الإجابات على الشكل التالي:

أحرار شام

توحيد أخوي

حياني سابقاً

شبيح بعيد عنك!

ننظر إلى بعضنا ونضحك، يستغرب، «أنتم صحوات؟!»، ليقول له أبو أحمد أحرار: «شو رأيك أنت؟ صرلك معنا تلات أيام، ونعرف إنك دولة، ونحن حكمنا القتل، يعني القصاص، بإمكاننا قتلك أو رميك بمكان ما، ولكن أنت مهاجر في سبيل الله، جئتنا ونحميك، ولكن يا أبو عبد الله إلى الآن لم تقل تهمتك؟»، «أنا والله جئت جهاد أرض الشام، ولكن هم قالوا أني مخابرات، وأنا ليس مخابرات، .«لم أستخدم نت منذ ستة أشهر والله في اليوم الرابع أيضا ذهب إلى حفلة تعذيب، حيث تم تسخين الماء ورشقه على جسده، وتم شبحه أربع ساعات، ونحن نشاهده من الثقب -ثقب صغير في باب المهجع- هو والمساجين المشبوحين، وحين أعادوه تمت إعادة جميع مشاهد المسلسل السابق، من إعادة تغسيله وتدليك جسده وإعطائه الدواء المسكّن.

«بعدها قال له أبو أحمد أحرار: «نحن ماذا؟ أبو عبد الله : أنا عليّ طاعةُ أمير... أنتم صحوات!.

هرول إليه أحد عناصر جبهة النصرة وقال له: «أنت أخي، وأنا من جبهة النصرة» ، لكن أبو عبد الله بقي مصراً :أنت مرتد!

كنت أراقب الجميع وأنا أضحك، وكأن أبو عبد الله هو الآلة الإلكترونية التي تضع فيها قطعة نقود حتى تقول كلمة، «وأنا وأنا وأنا»، الكل يسأل ما هو حكمه حسب رأي أبي عبد الله، فكانت النتائج أيضاً على الشكل التالي: أنا مرتد، وهو صحوة، وذاك خائن. لم يكن أحدٌ فينا على دون تهمة، حتى أنه قال لعنصر جبهة النصرة بعد ضحكة: «أنت أبو ماريا غلاكسي»!١

يُذكر أن هنالك إشاعةً بُثت بين عناصر التنظيم، تقول بأن عناصر جبهة النصرة في مدينة دير الزور رفضوا قتال الدولة، ولكن أبو ماريا القحطاني -وهو المسؤول العسكري في جبهة النصرة- قام بإغراء العناصر بإعطاء كل من يقاتل الدولة جهاز موبايل غلاكسي!).

قال له عبد الحي: «أبو ماريا «غلاكسي نوت فور؟ إلا نوت ٣؟ ضحكنا جميعاً إلى أن فتح باب المهجع السجان أبو وضاح! لتسكت شهرزاد عن الكلام المباح.

عود أبو حمدان

م. أسامة شاكر

جرت أحداث هذه القصّة في جناح المعتقلين السياسيين بسجن حلب المركزيّ (المسلمية) عام ١٩٨٣

جلس القرفصاء أمام الطناجر، وراح يعاين إحداها. تأملها، نقرها بإصبعه وأجال نظره في بقية الطناجر. التقت عيناه بأبي حسن الذي كان يفرغ أكياس الفاكهة والخضراوات ويصنفها. المكان ضيق والذي وصل في زيارة الشهر يكفي لمدة ثلاثة أيام.

خطا أبو حسن وهو يبحث عن موطئٍ لقدمه بين الأكياس والمواعين. اصطدم به فقال غاضباً:

يا أبا حمدان كلنا جائعون. اجلس على فراشك، فلن نستطيع القيام بشيءٍ إذا لم ترتب الأشياء.١ أمرك أبو حسون ابتعد قليلاً، ثم قرفص ثانية، وأسند ظهره إلى الجدار الخارجي للمطبخ. لف ركبتيه بيديه، وأمال رأسه ليسحب أنفاساً من سيجارته التي لا تقف بين أصابعه بحركة !متواترة. رفع رأسه ونادى باسماً: أبو حسن

الآن وقتك؟

لمن هذه الطنجرة؟ -

أدار أبو حسن الطنجرة وأمعن !فيها ثم قال: هذه لعزيز

خرج عزيز من المطبخ يزرزر بنطاله. اقترب منه أبو حمدان قائلاً:

مرحباً أبو العز.

أهلاً أبو حمدو، هل جاءتك زيارة؟

بلى.

ما شفت أهلك على الشبك اليوم. كان الازدحام شديداً، فقد شاركنا الزيارات سجناء الأمن العسكري.

تمشيا جيئة وذهاباً في المكان المتروك بين الفرش المرصوفة على امتداد جداري المهجع الذي لا تتجاوز مساحته الثمانية أمتار بخمسة.

المهم كيف أحوال الوالدة؟

الله يكون في عون الوالدة. ثم استطرد مقهقهاً: هذا الملعون أبو زفت أبو عبدو السجان قال لها اذهبي إلى رئيس المفرزة يخرج لك ابنك من السجن. فتركتني على الشبك، وذهبت تبحث عن رئيس المفرزة. أنا أناديها وابن الحرام يضحك.

يعني أنها تصدق إن قلتَ لها إن رئيس المفرزة أخذ الطنجرة؟

أية طنجرة؟ -

الطنجرة التي جلبت لك فيها الطعام.

ولأيّ شيء تريدها؟

تلزمني في أمر- صمت للحظة- أريد أن أصنع - منها عوداً.

انفجر عزيز ضاحكاً وسأل: عود؟ تتكلم جد؟ والله جد!

نظر إليه مبتسماً غير مصدق وقال: على حسابك الطنجرة وأصحاب الطنجرة.

***

سمع أبو حمدان صوت عجلات عربة الطعام. اقترب من الشبك الفاصل بين المهاجع والممرّ. وقف على رؤوس أصابعه. ألصق جسده بالقضبان محاولاً النظر إلى نهاية الممرّ وقال:

جاءت العربة بسرعة اليوم. لا أحد يريد طعام الدولة.

وصل محمود السجين القضائي وهو يدفع العربة أمامه، ثم صاح:

مهجع ثمانية، تريدون طعام؟

كان محمود يقدم خدمات مأجورة للسجناء السياسيين، لأنهم لا يخرجون من مهاجعهم أبداً ما عدا يوم الزيارة. وقد تناوب الكثير من السجناء القضائيين على هذه الخدمة .بسبب الخلاف على الأرباح بين السجانين

سمع محمود الجواب بالنفي فتابع سيره. استوقفه أبو حمدان:

لحظة محمود، أريد أن تؤمن لي سحارة.

والله صعب. لا يسمحون أن نمد أيدينا على شيء.

مد أبو حمدان يده، وقدم له ورقة نقدية. تناولها محمود وهو يقول:

إن شاء الله. مهجع تسعة، تريدون الطعام؟

صاح أبو حسن من آخر المهجع:

والله يا أبو حمدان نقود التروست ليست لشراء السحارات وحرقها وتحضير الشاي.

ابتسم أبو حمدان: طوّل بالك أبو حسون. ليست من أجل الشاي.

قال عزيز: يريد أن يصنع عوداً.

فتح أبو حسن عينيه ونظر إلى أبو حمدان متسائلاً: عود؟ ثم حرك يديه علامة الاستغراب وتابع عمله.

***

قال أبو حمدان: أين السحارة يا محمود؟

السحارة؟ ما في سحارة، شافها سجان الأمن - العسكري على عربة الطعام، فرماها وسألني إلى أين تأخذ السحارة.

منذ أربعة أيام وأنت تقول لي هذا الظهر وهذا المساء وغداً، وبعد ذلك تقول رماها السجان. معقول سحارة ما تحسن تدخلها يا محمود؟

والله يا أخي رماها -ومد يده إلى جيبه وأخرج القطعة النقدية- هذه نقودك، عندما آتي لك بالسحارة أعطني إياها. لو نقدر نخدمكم بعيوننا، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

اترك النقود معك. وعندما تأتي بالسحارة، فكها أولاً من المسامير وحطّ الخشبات تحت برميل الطعام وهات

المسامير معك. والغراء، ألم تشترِه بعد؟
الغراء أمره سهل، أضعه في جيبي.
والتيل يا محمود، لا تنسَ التيل.
وهنا تذكر محمود، وأخرج التيل من جيبه، وأعطاه إياه.
على راسي يا محمود. لا تظن أن حسابك - انتهى. حسابك محفوظ.
***

صفّ ألواح السحارة على الأرض المبلطة، ثم جمعها وهو يهمهم راضياً ووضعها تحت الفراش. استلقى على الفراش واضعاً رجلاً فوق رجل. أخذ يداعب الحائط بطرف أصابع رجله، أشعل سيجارة وأسند زنده على جبينه. يتخذ الدخان أشكالاً بارتقائه، ثم تذوي أشكاله وتتحد. يحضن العود ويلامس الأوتار فينتابه فرحٌ ممزوجٌ بمحاولة استعادة اللحن. يدندن في داخله فيصعد النغم هادئاً ضعيفاً وتتحرك شفتاه. يزداد النغم وضوحاً فينتقل من الاستلقاء إلى الجلوس ملامساً الحائط بظهره المحدودب. يضع ذقنه بين ركبتيه ويحيط ساقيه بيديه. .يرفع عينيه المترعتين بالانفعال والفرح ما لك أبو حمدان توقفت. أكمل؟ وأكمل القائل من عنده مشجعاً.

تابع أبو حمدان الغناء وقد صار صوته مسموعاً. يسود الصمت، تنتقل الأغنية إلى الإيقاع الراقص. يصفق البعض وينهض أبو حمدان للرقص مفرقعاً بأصابعه في حركاتٍ أقرب إلى البلاهة أو السكر. يستمر الغناء الجماعيّ، يزداد التصفيق انسجاماً وتزداد حركات أبو حمدان توافقاً مع الإيقاع. يهبط الإيقاع، ينطلق صوت هيثم البدوي راعشاً قوياً. تكفّ الأيدي وتكفّ السجن عن مضغ لحظات السجن. يتهادى الصوت صقيلاً رخيماً.
***

جلس أبو حمدان في المطبخ حتى لا يراه السجان أويسمع الصوت. وراح يثقب أطراف طنجرة الألمنيوم بمسمارٍ مستخدماً خشبة الفرم في الطرق. طار المسمار أكثر من مرّةٍ وسقطت خشبة الفرم على أصابعه مرّات. لم يكن يأبه لذلك فقد كان انتباهه مركزاً على الجهة التي يطير إليها المسمار. احتل المطبخ

مترين بمترين من زاوية المهجع، وقد اقتطع منه نصفه من أجل المرحاض والحمام. وتكدست في زاياه وعلى حوافي القواطع أغراض سبعة عشر سجيناً. حتى زوايا المرحاض ترى فيها أشياء ضرورية لا غنى عنها، وهي تلامس مؤخرتك عند قضاء الحاجة.

كان خوفه أن يطير المسمار إلى جهةٍ يصعب العثور عليه فيها، أويهرب من تحت شق الباب إلى داخل المهجع فيدخل بين البطانيات. حينها يحتاج الأمر إلى إنهاض الآخرين من فرشهم. وكان حرصه على خشبة الفرم أن تنشطر لا يقلّ عن خوفه على المسمار، فلم يوافق أبو حسن على إعارته إياها إلا بعد جهدٍ ولأي، فالحصول على أخرى يستغرق وقتاً ويكلف التروست مصروفات إضافية.

أنهى أبو حمدان تثقيب الطنجرة بما يلائم خطة عمله. وعندما جلس إلى طعامه تناوله برفقٍ شديدٍ، فأصابعه لم تكن تطاوعه على الإمساك بالخبز جيداً وغمسه في الصحن. ومع تناول اللقمة يرفع رأسه إلى الأعلى خوفاً من أن تسقط من بين أصابعه.

أعاد خشبة الفرم قائلاً:
سليمة أبو حسن، لربما أحتاجها قليلاً فيما بعد، ولي طلب آخر، أريد القطاعة.

رفض أبو حسن رفضاً قاطعاً السماح باستعمال القطاعة، فهي تقوم بخدمة المهجع على أكمل وجه، ومن المؤكد أن استعمالها في أمورٍ لا علاقة لها بالطعام سيثلمها ويلويها.

حصل أبو حسن من محمود على عدة أغطية من التنك لعلب المربيات بسعر لا يضاهى، فهو إن أخرج شيئاً من مال التروست، فبعد مماحكة وتقليب نظر. وقد عرفه المتعاقبون على الخدمة نداً لا يستهان به، وسلّم له رفاقه في أسلوب حرصه وإدارته رغم استياء البعض من تشدده. وأكثر ما كان يمضّه هو تبديل فرشاة الأسنان، وعدم تقصير الشعر جيداً عندما يؤتى بالحلاق، أو دفع إكرامية زائدة لمحمود أثناء الزيارات قبل دخول نقود التروست تحت هيمنته. أما إذا قدّر أن الأمر ضروري فهو يدفع كل شيء حتى لو أدى ذلك إلى إفلاس التروست. لا يناقش في ثمن الأدوية، أو الألبسة الداخلية في مطلع كل شتاء، أو ثمن الكرتون الذي يوضع بين بلاط المهجع والفرش من أجل امتصاص الرطوبة المتولدة من برودة الجو وحرارة الأجسام، أو شراء الناموسيات لدرء جيوش البعوض المهاجمة في فصل الصيف، أو الرشوة السخية التي تدفع من أجل إدخال كتاب. إذ لا توجد إمكانية إدخاله في كل زيارة، ناهيك عن أن الكتاب يقرؤه الجميع.

تناول أبو حسن خشبة الفرم، وقام بتطريق دوائر التنك على بلاط المهجع، وقدّم واحدةً لأبي حمدان.

تابع أبو حمدان جهوده مع سحارة الخشب. تأمل أطوالها، جسّ متانتها واختار أنسبها لذراع التوزيع. رسم بالمسمار على الألواح. أحكم الأماكن المهترئة من الألواح في وسط الطنجرة ليسهل عليه حفر دائرة الأصوات.

لم يكن أبو حمدان من الذين يبدعون في الأعمال اليدوية، فغسل كأس أو صحن يتطلب منه شحذ إرادةٍ وبذل جهدٍ غير محبّب. هكذا عوّدته أمه المتفانية في خدمة أسرتها، وهكذا عوّده أبوه الميسور نسبياً في تأمين متطلباته.

أما إن هو أقبل على القراءة دخل في غيبوبة عن العالم المحيط، تتقاذفه الأحرف وتنأى به الكلمات، فلا ينتزعه من ملكوته اللغو واللغط من حوله إلا إذا وصل حدّ الشجار،

أو جاءه ضيفٌ يجلس على فراشه ناشداً عنده السلوى في الحديث، أو إذا جاء دوره في لعب الشطرنج. فالمهجع لا يملك إلا واحداً تم صنعه من العجين. وكثيراً ما ينتابه الشرود وتتخطفه الأفكار فيحلق في هموم العالم باحثاً عن حلول، فحيناً تراه يكشر عن ابتسامة عريضة ساخرة فالمسافة كبيرة بين الحلم والواقع، وطوراً تأسره الفكرة فينساق في تداعيات لا يعرف إلا الله مداها ويعبّر وجهه عن هم واستغراق ويأخذ لسانه يلوك حافة شاربيه. وقد ترهق النفس ويتعب الذهن، فيعبّ أنفاساً عميقة تساعده على الهدوء ويترنم بألحان تجلب له السكينة.

لم يكن أحدٌ يضاهيه في مقدرته على تعلم الإنكليزية، وصبره عليها، ودقته في النطق بها، وهو الطالب في السنة الثالثة أدب إنكليزي. ولقد حصل والده بشق الأنفس على موافقةٍ من قيادة الفرع لإدخال معجم وعدد من الروايات والكتب بالإنكليزية، فكانت له في سجنه برداً وسلاماً. ولم يكن أمر إدخال الكتب إلا حلماً راود الجميع، أما أن يتحقق ذلك فهذا يعني أن حجم الوساطة يكفي لإطلاق سراح سارق أو قاتل. كان يقرأ الكتب بعينيه، ومن ثم يترجمها فقرة فقرة إلى العربية لرفاقه المتحلقين حوله. فإن كنت لا تعرف أنه يترجم، لما ساورك الشك أن بين يديه كتاباً بالعربية يتلوه على طريقة الحكواتي.

تمّ اقتراح أن يعلّم الإنكليزية للراغبين من الرفاق، فكان أبرع معلم، أما أن يقوم بمعالجة الطنجرة وألواح السحارة ليصنع منها عوداً فحدث ولا حرج من شتائم وإحباط وجروح وقروح.

بقيت على موعد الزيارة أيام معدودات وكثيراً ما انتابه الشك في أن تجلب أمه الأوتار التي أوصاها عليها فهي، وإن لم يزل فيها بقية شباب، إلا أن مشاغلها لا تعد ولا تحصى: أحد عشر ولداً على رؤوس بعضهم البعض. أكبر اثنين منهم، هو وأخوه الذي يرزح بجانبه، دخلا السجن في ليلةٍ عمياء لم يحسب حسابها. ناهيك عن أنها كانت تسمح لنفسها بتقدير أهمية الأغراض المطلوبة. أما والده الذي يقف أمام الشبك

بقامته المديدة، ينظر إلى ولديه ذاهلاً ويتمتم ببضعة كلمات، فهو لا يعوّل عليه ولا يعرف من مسؤولية البيت إلا الإنفاق مما يكسبه كسباً مشروعاً أو غير مشروع، ومما ورثه من أرضٍ غلا ثمنها في الأونة الأخيرة فأقدم على بيعها. ولم يكن يتصور إنساناً غبياً يقول للسلطة لا، بعد ما حدث من مجازر في المدن السورية. وهذان الفلعوصان يعتقدان أنهما المهدي المنتظر. وكثيراً ما كان يثور في البيت غاضباً ويحمل أمهما مسؤولية اعتقالهما وسوء تربيتهما ودلالها لهما، ويقسم أغلظ الأيمان مرفقة بأفحش الشتائم أنه لن يزورولديه بعد الآن، وينقطع بضعة أشهر ثم يعاود الزيارة من جديد.

فكر أبو حمدان بالطريقة التي يمكن بها إدخال الأوتار. هل يقول لمحمود؟ ولكنه قد ينسى ذلك في غمرة العمل وإدخال الأغراض التي يجلبها الأهل، واقتطاع حصة السجانين قبل إدخالها إلى أصحابها. كما أنه موضوعٌ تحت الرقابة المشددة في يوم الزيارة، فقد استبدل الكثيرون قبله لأنهم حاولوا إدخال أشياء من دون علم السجانين، بغية الحصول على الإكرامية كاملة من دون مشاركة أحد.

فكر أبو حمدان أن يقول للسجان، ولكن هذا يتطلب مبلغاً محترماً، وهو عرضةٌ للموافقة أو الرفض.

ليست هناك إلا طريقة واحدة، وهي أن تضعها أمه في جيب أخته الصغيرة، ويأخذها منها أثناء العناق، على طريقة إرسال واستلام الرسائل. بيد أنهم لا يسمحون في كلّ زيارةٍ بدخول الأطفال إلى الفسحة التي يقف فيها السجناء، فهذا أمر يتبع مزاج السجان ورضاه أوعدمه. وأحياناً لا تستطيع أن تخمن لماذا سمحوا للأطفال، أو لم يسمحوا. وكم من مرّةٍ عاد الآباء السجناء من الزيارة وفي عيونهم دمعة مخنوقة لأن أطفالهم بقوا على الطرف الآخر من شبكين من دون ملامستهم.

***

اجتاز أبو حمدان الممرّ عائداً من الزيارة وهو يطفح بشراً ويرفع يده محيياً سجناء المهاجع. أقفل السجان الباب خلف أبي حمدان وقال: اليوم أبو حمدان مبسوط، ما هو مثل غيره بتصير خلقته يوم الزيارة كما -أستغفر الله العظيم.

دخل أبو حمدان المطبخ وأخرج الأوتار من جيبه، وبدأ العمل. مكث حتى ساعة متأخرة من الليل قابعاً في الحمام.

في اليوم التالي، وعند الغروب بدأت التعليقات: يا شادي الألحان هات وأسمعنا.

أخرج أبو حمدان العود من كيس الخيش الذي خاطه وطلب من الجالسين بجانب الشبك مراقبة الممرّ. احتضن العود وراحت يداه تلامسان أوتاره. نظر إلى الجميع باشاً ضاحكاً ودوزن الأوتار، همّ أن

يبدأ ولكنه عاود النظر إلى الجميع ببسمةٍ عريضة، وقد احمرّت وجنتاه، ثم راح !يعزف: يا شادي الألحان هات واسمعنا كانت في اللحن عذوبةٌ وسلاسةٌ ويثير الرغبة بالمشاركة، إلا أن المفاجأة أغلقت باب المشاركة وفتحت باب الصمت وعلت الدهشة الوجوه، فلم يتوقع أحدٌ أن ينجح العود إلى هذه الدرجة، ولم يكن أحدٌ يعرف أن أبا حمدان عازفٌ مقتدر. استرسل اللحن يباغت النفوس الذاهلة. شيئاً فشيئاً بدأت النفوس تمتلك ناصية أمرها، وأخذ اللحن يدغدغ ذكريات الطرب القديم. انتهى اللحن وصفق الجميع بهدوء.

عمر والله عمر يا أبو حمدان!

نهض أبو خالد، أكبر السجناء سناً، واقترب من أبي حمدان وعانقه، والتفت إلى الآخرين بعينيه المغرورقتين، وقال:

والله فنان، تسلم إيديك يا أبو حمدو. أنا لما شفتو بيشتغل بالحمام ما قبضت الأمر، وقلت لحالي خلي الشباب يتسلو.

أبو خالد إلى مكانه، وجلس على فراشه ماداً رجليه ومسنداً ظهره إلى البطانيات المطوية فوق الوسادة ناظراً إلى الجميع، ولم تزل بقية تأثر تلمع في عينيه.

دارت النشوة بأبو حمدان، واشتعل وجهه ألقاً، وأخذت عيناه تنوس ووجهه يعبر عن فرح غامر. سحب نفسين من السيجارة ووضعها بجانبه على البلاط. تناول العود ودوزنه وبدأ (أحنّ إلى خبز أمي وقهوة أمي).

ساد الصمت من جديد، فالأغنية تخرس الرعد، وتشعل البرق. استرسل اللحن مع صوت أبي حمدان ذي البحة المتآلفة مع مثل هذه الأغنيات. أصابعه تلاعب الأوتار باقتدار وخفة. بحث عن شيءٍ يعزف به عوضاً عن أصابعه، فلم يجد. جرّب قشرة خشب، ولكنها لم توافقه، وقرّر أن يعزف بأصابعه ريثما يجد شيئاً ما.

لم يكن أحدٌ ينظر إلى الآخر. كلهم يمتصّون اللحن، فيمتصّهم اللحن. بدت الوجوه أنحف مما كانت. وكان أحمد المعرستاويّ، أصغر السجناء سناً، يشدّ أصابعه ودفقات البكاء تتصاعد من أحشائه لتصطدم بصمود عينيه اللتين جحظتا.

لا أحنّ ولا أمنّ، يحنّك أبو خبيط. هات العود هات!

وقع صوت السجان فوق الرؤوس كالصاعقة. فتح الباب وتقدّم أبو حمدان حاملاً عوده وهو يبتسم ابتسامة شاحبة.

من أين أتيت به؟

شرح له متلعثماً باقتضاب.

اجلس مكانك!

تناول السجان العود بين يديه، تأمله، نقر بأصابعه على الأوتار، ثم تبسم ساخراً. نظر إلى الوجوه فرآها شاحبةً ترقبه بغضب مكتوم، وربما لم يرشيئاً. قهقه وخبط بالعود على القضبان فتهشم العود وراح يقهقه.

ساد صمت الفجيعة. قال ياسين ولهجة السخرية والتحدي واضحة:

تسلم إيديك يا أبو عبدو!

ردّ السجان بغباء، وربما بغباء محسوب:

الله يسلمك! وأخذ يقهقه.

نظرأبوحمدان إلى ماوراء السجان، إلى النوافذ العالية لجدار الممر، إلى السماء المقتربة من الظلام، ولم يعد يسمع شيئاً مما يدور حوله.

كاد يصرخ. كاد يبكي، ولكنه أمسك.

قطعة ناقصة من سماء دمشق
رواية الحرب

حسين خليفة

نتاتيف ذاكرة يلمّها بهدوء الروائي ويسردها بنزق الشاعر، هو ما يفعله رائد وحش في مغامرته السردية الجديدة (قطعة ناقصة من سماء دمشق. من منشورات النايا للدراسات والنشر بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون . آفاق. وصدرت مؤخرا عن دار ممدوح عدوان أيضاً) بعد كتابين شعريين (دم أبيض) و(عندما لم تقع الحرب).

يستحضر تفاصيل حياته . حياتنا في دمشق مع الثورة التي فاجأت الجميع، حتى من كان يحلم بها.

بلغة هي أقرب الى القصيدة في ملامستها لروح الأشياء، واقرب الى السرد القصصي في الولوج الى تفاصيلها الغنية، الى ذاكرة خضراء.

يؤرخ الكاتب لأماكن سكنها وعرفها وتبادل معها الخبزوالزيتون والكأس والخوف المزمن، لدفء المرأة البعيدة القريبة التي بها يبدأ وينتهي الكتاب، المرأة التي تكفي رسالة موبايل منها لإطلاق عواصف الحزن في روحه.

يتقمص روح خورشيد الطفل الأعمى في فيلم محسن مخملباف «الصمت » وهو يلحق (طنبورته) تحت المطر.

للمخيم الذي يحتل المساحة الأكبر من سيرة السماء الناقصة، المخيم الذي يحس القارىء أن في جعبة رائد المزيد ليقول عنه، ما يصلح لمشاريع روائية قادمة ربما، مخيم خان الشيح المنسي على حافة (اوتوستراد السلام) الذي شقته الحكومة السورية خلال عهد (الانفتاح) و(مباحثات السلام)، فظن الناس به ظن السوء!! ها هي باكورة السلام على الحدود مع (الجارة العدوة)، ليتبين لاحقاً أنه من متطلبات وحش الاستثمار الذي فتحت له ابواب سوريا ما بعد الحصار الذي امتد حتى بداية تسعينيات القرن الفائت، خلال الفترة (الاشتراكية) المرّة.

يهجىء الكاتب مفرداته: الخان والشيح والمخيم طبعا. النهر الأعوج الذي يشي بالبدوي المزمن: (لحسن الحظ أنّا وجدنا نهراً أعوجَ نحاكيه. أهل البداوة لايعرفون خطاً مستقيماً، وبشفاعة اعوجاج النهر شوارعنا كلها عوجاء. ما من شارع يستقيم لأكثر من ثلاثة بيوت.) ص١٤

نموت مع أشجارنا أفضل من أن نموت» كلٌّ على حدة ».يقول له صديقه الذي قطع شجرة مشمش ليدفىء عائلته بها، الصديق الذي ينصحه ساخرا بان يستعمل مكتبته في التدفئة بعد ان عز المازوت وصارت الكهرباء بالقطارة، فيما هو يبحث عن بضاعة يضعها على بسطة فلا يجد بضاعة عنده سوى كتبه، بعد ان تحولت البلاد كلها الى بسطات لاناس فقدوا اعمالهم ولم يعد لهم مصدر رزق.

عن المرأة التي نئدها بأشكال وطرق شتى، ونطلق العنان للذكر، وعن الثورة التي أطلقت فضاء الانوثة في انخراطها في فعالياتها، في اكتشاف المساحات الكبيرة المقموعة في انثى الشرق، الثورة نفسها التي قتلت ابا طارق الواضح الذي كان يسمي الاشياء باسمائها دون خوف، وقتلت المصور المجهول . . .

يكتب رائد وحش أيضاً عن مجازرالشجر قبل الحرب وبعدها، الحملة على الخمارات ومحلات بيع الخمور ولو كانت على رف مخفي من قبل الاسلاميين الذين بدؤوا بالتمدد والتحكم بكثير من مفاصل الحياة في سورية منذ زمن ما قبل الثورة عبر رأس المال الديني والعلاقات المتشابكة مع أجهزة السلطة، فأزالوا أحد أشهروأعرق بارات دمشق (فريدي) لينشىء متمول دمشقي من اهل الرضا مكانه مطعما للشاورما.

مكتوبٌ علينا بناء بيوت لا نسكنها . .تقول الجدة التي تصر على الجلوس في كرسيها المتحرك على ضفاف النهر الذي غادَرَ مياهَهُ، أو غادَرَتْه، ما زال كما كان يطفح بمياه صالحة للشرب!!

تتداخل سير النزوح والرحيل القسري، من فلسطين إلى الجولان في نكبة ١٩٤٨، ثم من الجولان الى دمشق مع النازحين السوريين نتيجة احتلال الجولان بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧. لاحقا سيستقبل المخيم والمدن السورية لاجئين عراقيين في ٢٠٠٣، ولبنانيين في ٢٠٠٦، وسوريين هاربين من مناطق التوتر حين كان المخيم منطقة آمنة مع بدء الثورة وتحولها الى حرب عمياء . . ثم نزوحهم القادم إلى أين؟!

يا جماعة اللعنة التي أصابتنا ستصيب» العرب، ثم تصيب العالم. هذا العالم سيذوق طعم لعنة فلسطين» يقول الدكتور خالد للساهرين على قنديل لا يلبث أن ينطفىء...

يتنقل بين اكداس من الكوابيس والاحلام والهواجس، هاجس اختفاء الهوية والحواجز التي تتناسل، هاجس الاعتقال بل الحلم به لتكسب مصداقية كونك معارضا أو صاحب رأي.

قلتُ لصاحبي في المقهى:«أخشى وقتاً تصبح الاعتبارات فيه لصالح رصيد المرء من الاعتقال.» قال صاحبي: «أتمنّى الاعتقال فعلاً، فما من مصداقية لكل ما أفعله دون وسْم سجن الرأي..!» ص٣٣

الخلفية الكبيرة لكل السردية المؤلمة والجارحة هي الحرب، شخوص رائد وحش هم اقرب إلى شخصيان سينمائية تتحرك أمامك، تتجول في أزقة خان الشيح، تمضغ الوقت في اختراع طرق جديدة للحياة.

مسّوس الذي فقد عقله بسبب كأس حليب فاسد اطعمه لابنته الوحيدة فكان سبب موتها هو راوٍ حقيقي للخراب هنا، لجبهات متقابلة توزع الموت على السوريين. . .بعد ان تحول قبل الحرب الى شرطي سير متطوع على الطريق الرئيسية الهودجي، عزمي، جمعة العسكري، الميجر . . . .وآخرون، أشخاص من لحم ودم، خاضوا حروباً، مروا في سجون من كل نوع ولون، عاشوا الرحيل مرات ومرات، يخرجهم رائد وحش من النسيان الذي عاشوا فيه إلى الضوء.

تتدفق السير وتتداخل، الخيط الأقوى الذي يجمعها هو الصدق، الحرارة العالية في السرد تجعلك واحداً من هؤلاء، وأنت تقرأ سردياته تحس كأنك جالس مع رائد في مقهى دمشقي وهو يروي ويروي ولا ينتهي. . .

HAWA SMART

هوا سمارت

دمشق. حمص. حماه 103.2

حلب. ادلب. اللاذقية. دير الزور 99.6

من الساعة

6 صباحاً - 12 مساءً

www.ha-int.org - facebook.com/Human-Action-International